داود سلمان الشويلي

نخلة خوص سعفها كثيف

رواية

نخلة خوص سعفها كثيف

دار فنون للطباعة للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

د/ محمد أنور

المدير العام

أ / رائد قديح

اسم الكتاب: نخلة خوص سعفها كثيف

المؤلف: داود سلمان الشويلي

نوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: ١٧٥ صفحة

دار فنون للطباعة والنشر والتوزيع

١٣ب ش أبو الفدا - الهرم - أمام شارع العريش

الجيزة - جمهورية مصر العربية

موبايل: ٠١٢٠٨٨٦٣٣٨٩ - ٠١٠٢٠٤٥٤٠٧٣

Email: dar.fonoon2020@gmail.com

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

×× / ٢٠٢٠ م

الترقيم الدولي ISBN

978 - 977 - ×× - ×× - ××

جميع الحقوق محفوظة

نخلة خوص سعفها كثيف

رواية تتحدث عن ثورة تشرين الشبابية في العراق

داود سلمان الشويلي

(تشرين الأول – 2019)

فنون
2020

داود سلمان الشويلي

نخلة خوص سعفها كثيف

"رواية تتحدث عن ثورة تشرين العراقية"

اسم الكتاب: نخلة خوص سعفها كثيف

المؤلف: داود سلمان الشويلي

نوع الكتاب: رواية - الطبعة الاولى
الطبعة الأولى في دار فنون في القاهرة – مصر- ٢٠٢٠ .

عدد الصفحات:

تصميم الغلاف: صارم داود سلمان الشويلي

الاهداء:

الى شهداء ثوار تشرين، السكينة لكم في الأبدية، وما زالت أرواحكم ترفرف على الثوار الأحياء الصامدين لتمنحهم الطاقة والإقتداء ليبقوا في مسيرتهم، ويحافظوا على تفكيرهم الصائب، والمثمر.

سينهض من صميم اليأس جيل

شديد البأس .. جبار عنيد

(الجواهري)

(إنتباهنا لأطراف الأشياء الخطرة،

اللص النزيه، القاتل الرحيم،

الملحد المؤمن بالخرافات). (روبرت برونغ)

بوليفونية "نخلة خوص سعفها كثيف"

أ.د.فيصل عبد عودة

أُسست رواية (نخلة خوص سعفها كثيف) للروائي العراقي داود سلمان الشويلي خطاباً بوليفونياً أرتبط بمرجعيات محددة زمانياً ومكانياً أسماه الروسي ميخائيل باختين بالتداخل الفكريPolyphony Dialogism .الذي أختلف به هنا المؤلف عن خطاب باختين بسبب أن المؤلف لم يؤثث لخطاب حواري صارم بالرغم من أن البوليفونية الذي يقصدها باختين هي التعددية الصوتية داخل الرواية من حيث عدد الشخصيات المهيمنة على المتون الحكائية لها والمسماة ب -الحوارية -التي تتشكل على وفق موروثها اللغوي وتراثها الأيدولوجي لتؤسس الفضاء الحواري للخطاب الروائي وهو ما يجعل القاريء والناقد أمام مفارقة هذاالتداخل الأيدولوجي في لغة تخاطب الشخصيات. لذلك تقصّد المؤلف أن يخلق عالمين من المكان ما بين الناصرية وبغداد وما بين بغداد وأستراليا الذي بضوء هذين المكانين تحددت أجزاء الرواية وفصولها ، بل تحدد الفعل القصدي بأشارة فينومينولوجية ظاهراتية الى أبعادها الثلاثة التي هي الشخصيات – المكان – عنوان الرواية .إن هذا الفعل القصدي هو تأسيس لردود من – أن كل وعي هو وعي بشيء ما – على حد تعبير هوسرل . لقد تقصد المؤلف بأن الشخصيات والمكان والعنوان هي منحنيات وعي (للثورة) التي تنامت شخصياتها الفاعلة كريم – ساجد – شرّاد في مكان هو نصب الحرية يرتبط بعنوان وأسم العاصمة بغداد التي شكّلت جزئي الرواية كمكان مهيمن وكوعي تتحرك بها شخصيات الثورة. هنا أزاح المؤلف الستار عن التشاكل اللساني - الروائي السردي عن معظم شخصياته وحلّت محلها أنساق صورية كانت ولا زالت تتعامل بجدية مع أحداث الوطن وتكون شاهدا عليها ومنها (معمارية نصب الحرية) الذي أراد له المؤلف بقصدية واضحة أن يكون بناءاً متناظراً ما بين عاطفة الحب الأنساني كريم – حميدة وما بين نصب الحرية وساحات التظاهرات في المحافظات وديمومة هذه الثورة التي تمثلت بأستشهاد كريم في ساحات الثورة.

إن ما أقدم عليه المؤلف من أسلوبية مغايرة في الكشف عن ذوات شخصياته ومنها شخصية شرّاد الشخصية القروية البسيطه التي كانت تعيش بقرية نائية قريبة من الحدود الايرانية – العراقية كيف ساهمت هذه الشخصية ب (تهْجين)الأحداث أي مزج وعين أو أكثر بأزمنه منفصلة لتنتج وعياً يحدد مسارها في الرواية ، وهذا ما حدث لشراد من أن يلتزم بطباعة وأعرافه الدينية والاجتماعية وما بين تغيّر أسمه الذي لا ينسجم مع ثوريته المحرّضة بالدفاع عن الوطن والثورة . لذلك بدت هذه الفكرة شديدة الوضوح من خلال التنامي المستمر لهذا التوظيف القصدي الذي اوجده

المؤلف بتقنية واضحة تراتبية تركت الباب مفتوحاً أمام تأويلات تتحرك بدينامية زمانية ومكانية تنسجم مع الطقس الروائي الملبد بالأفعال والتحولات الفكرية والنفسية.

إن الحضور الفكري والأجتماعي هما سياقان مركزيان تمحورت بهما الصورة الناطقة في السرد الروائي .فكان للصورة المنتَجة وجوداً تشكيليا متحركاَ من خلال معمارية شوارع بغداد وكيف تساوقت مع الاحداث كأماكن لأنطلاق الثوار وأناشيدهم الغنائية الثورية المنفردة منها والجماعية .فضلاً عن التحولات الغرضية لوسائط نقل الثوار(التكتك) التي هي مصدر رزق حيث تحولت الى إسعافات لنقل الشهداء والمصابين من الثوار ، فكان للمرأة حضورا واسعا إنطلق من جاهزيتها الفكرية المتنورة التي أسقطت قناع الزيف الديني المهيمن على تفكير المرأة بموجب الخطابات الساذجة والمتخلفة من البعض . فحضور المرأة هو نموذج لتهشيم البنية السائدة من خلال الفعل الفكري الايدولوجي **بفعل تماثلها مع المحيط الثوري الذي هو نسق مكاني اراد به المؤلف أن يكون بطلا في روايته .إن هذا هذا المضمون الفكري هو سياق تغيّر بفعل الوجود الفكري وما إنطلق منه من موجودات تزاحمت بكل ساحات الثوار التي تحولت الى مدونات للشعر وتجمعات شبابية ومنظمات المجتمع المدني وإتحادات ..**

لقد شكلت الصورة منظورا للتحدي أمام أعراف سائدة من الممنوعات ،أراد لها المؤلف أن تشغل حيزا (موخزاً) للوجود من أن مفاهيم الشرف والعفة والأنوثة لا تنحصر بصورة أمرأة تقوم بالتدخين كما فعلت الست (شذى) بل تتجسد هذه المفاهيم بحب الوطن والتواصل مع الثورة والثوار. لقد أزاح المؤلف الصور الزائفة المهيمنة من تفكير كل شخصياته وأوجد لها مساحات مكانية تحولت الى حاضنات فكرية تبلور بها النسق الشكلي والايدولوجي .

لقد أوجد المؤلف بوليفونية تقصّد من خلالها تعدد الاصوات والصورة التي هي الاصوات الفكرية التي لم تتنازل بها الشخصيات عن أفكارها ، حيث المؤلف هو الأخر لم يتنازل عن نفسه وعن وعيه ، وإنما توسع بأقصى حد في تركيب هذا الوعي .

الجزء الأول

ذي قار – بغداد

(بيان الرواية)

سمعت في ثمانينات القرن الماضي أنَّ روائيًا عراقيًا معروفًا سأل يوما عن سبب عدم كتابته عن الحرب العراقية الإيرانية، فأجاب: بأنَّه سيكتب عنها بعد أن تسكت مدافعها ويهدأ الصخب والضجيج. وهو إلى الآن لم يفِ بما وعد به.

وأنا بالعكس منه، سأكتب عن الثورة التشرينية وهي قائمة، حارة، طازجة، لم تدخلها شوائب أصحاب المصالح الشخصية.

***

أتساءل: هل الرواية مفهوم سردي لِما يقدمه الخيال البحت من أحداث، وشخوص، ووصف، وزمان، ومكان؟ أو إنها مفهوم سردي لِما يقدمه الواقع البحت من تلك العناصر؟ أو ان الاثنين يشاركان في بناء هذا المفهوم السردي؟

إنَّها تعبير عن أفكار، وأحاسيس، ومشاعر، ومواقف بعض الشخصيات المخلوقة من قبل الكاتب، والتي هي ممر لأفكار وأحاسيس، ومشاعر، ومواقف الكاتب نفسه.

لا يوجد في الفكر العالمي، وفي التكوين المادي والروحي للبشرية، ما ندعوه بـ"الخيال" البحت، وإنما يوجد "الخيال" النسبي والمنطلق أساسا من الواقع، أي يُبنى "الخيال" بعناصر "الواقع" المتاحة، والى الآن لم يكتشف العلم أن ما يحتويه المخيال البشري يولد مع ولادة الإنسان. من هذا المنطلق يجب أن نقبل المفهوم العام للرواية بمعناها الخيالي والواقعي سوية.

أما المفهوم العام للبيان هذا، فإنه عبارة عن موقف فكري، أو ممارسة فكرية، أو عيانية، تتخذه جهة معينة في أمر معين وفي زمن ومكان معينين، ولما كان البيان كذلك، والخيال والواقع هما أيضا كما طرحناهما، عندها يكون بياننا الروائي هذا لا يخرج عن بُنية روايتنا المسماة "نخلة خوص نخلها كثيف"، والذي بُنيت بإسلوب سردي غير بعيد عن الواقع والخيال، بل إنها تبنى منهما سوية.

فالواقع يفرض عناصره، أو بعضها، على "الخيال"، و"الخيال" لا يمكنه أن يلد أو ينبثق منه شيء دون عناصر الواقع العياني. إذن "الخيال" يُبنى على عناصر معروفة بحواس ومشاعر الإنسان، ولا يكون بعيدا عنها.

كل ما ورد في هذا السرد هو واقع حقيقي ولكنه دخل في أتون "المخيال" فخرجت هذه الرواية التي بين يديك.

فالعراق، وبغداد، وبقية أسماء المدن، معروفة، كالناصرية التي تعد مركزا لمحافظة ذي قار، ويمكن القول عن باقي المدن المذكورة في الرواية.

وبساتين منطقة السديناوية، والقرية التي تقع على الحدود العراقية / الإيرانية ذات الإيقاع الرتيب، وشارع الحبوبي، وساحته، وتمثاله، وأشجار ألآس المحيطة بالتمثال، وكذلك هيكل البناية التي شيدت بدلا عن بناية المحافظة القديمة، وساحة التحرير، وحديقة الأمة، ونصب الحرية، وجدارية فائق حسن، وجسر طريق محمد القاسم، والمطعم التركي، وساحة الوثبة، وجسر السنگ، وبناية كراج السنگ، وجسر الجمهورية، وجسر التحرير، والمنطقة الخضراء، ونفق التحرير، واستراليا، كل هذه المناطق معروفة للقاصي والداني.

والليل والنهار، والفجر، والصباح، والظهر، والمساء، وعشرة أيام، وشهر تشرين، كل هذه الأوقات والأزمان معروفة للقاصي والداني.

والمناخ بحرّه، وبرده، ومطره، وعواصفه، والأشجار بخضرتها، أو جفاف أوراقها أيضا، معروفة للقاصي والداني.

وكذلك الاتصالات بالموبايل، والتلفزيون، والطائرة، و"التك تك"، والستوته والسيارة، وأيضا البندقية، والرصاص الحي، وقنابل الدخان، والكثير من نتاجات التقدم التكنولوجي، معروفة للقاصي والداني.

وغير ذلك من عناصر الواقع العياني والتي تدخل في العملية السردية، فماذا تبقى للخيال ليشترك في العملية السردية؟

***

وبعد ستة عشر عاما من حكم المحاصصة للأحزاب التي سيّدها المحتل الأمريكي على شعب العراق، وما جاءت به من فساد، وسرقة، وقتل، وميلشيات، تَمَزّقّ ما تبقى من غشاء رقيق يخفي ما سمي فيما بعد "القيادات السياسية" للبلد، وتشكلت بهم العملية السياسية بعد عام ٢٠٠٣، ولم يبق شيئا تختفي ورائه أمام الشعب الذي خرج

منتفضا وثائرا، فيما ظل وجهها الأسود الكالح كوجه عاهر لم تزوّق وجهها أمام روادها البائسين، فأمعنت بالقتل. لقد سقط ذلك القناع في اليوم الذي نصب ما سمي برئيس الوزراء قادة عسكريين لرؤساء أزمة في محافظات الجنوب ومنها محافظة ذي قار ومحافظة النجف.

في هذه اللحظة انتصر الدم على القوة المفرطة التي قدمها عسكري مجرم لا فرق بيه وبين أي ذئب دموي، إذ أنه فتك بأهالي البصرة قبل أكثر من عام، واليوم وعند ساعة وصوله الناصرية والقوات التي يقودها سقط ٤٦ شهيدا و٢٢٥ مصابا. وبسقوط هؤلاء الشهداء، فأن دم أبناء الناصرية، والعراقيين جميعا، مضافا لاستشهاد "كريم"، في الرواية، في اليوم الأخير من بقائه في بغداد، يكون مجموع الضحايا أكثر من أربعمئة شهيدا.

***

إن الذي تبقى لعمل "الخيال" هو ما أضافه، مضافا لما يضيفه خيال القارئ من أمور، وما يضيفه من أمور خيالية أخرى إلى عناصر الواقع، فكانت هذه الرواية.

في هذا الوقت أستذكر رواية "مائة عام من العزلة" ومشهد تحليق "ريميديوس الجميلة" التي طارت بلفحة هواء، وغير ذلك. فعدّها النقاد شيئا إبداعيا رائعا من الخيال بناه الروائي من خلال مخزونه من قراءاته لقصص الخيال، ومنها حكايات "ألف ليلة وليلة" وقد سميت بـ "الواقعية السحرية".

هذا صحيح، ولكن الواقع يطرح مثل هذا الخيال، وهو في الكثير من العواصف الجوية خاصة في أمريكا التي تحمل ناسا وسيارات وبيوت وتنقلها إلى أماكن بعيدة، أو أن يموت الإنسان في أماكن عديدة ولم يعرف به أحد.

إذاً، الكذب في الرواية يُعدّ فضيلة.

***

الفصل الأول

قال لها وهو يلتصق بها وقد وضع يده اليمنى على جذع النخلة بعد أن لامست خصرها، فيما يده اليسرى وضعها على متنها، بعد أن التقط لها صورًا عديدة في موبايله، وقد انتصف الوقت، فكان الظهر، والشمس صارت في سمت السماء بالضبط، وغطت أعالي النخيل وأشجار "النبگ"*، وصبغت يومهم هذا بلونها الباهر، وقد فاضت على سطوح المنازل، ونهر الفرات الجاري الذي يلمع ماؤه، وظلال الأشياء أصبحت تحتها مباشرة، وقد سخن الجو، حتى باتت الأرض السبخة من تحت نعليهما البلاستيكيين حارة جدا، فراحت أجسادهم تنز العرق الذي لم يبعث أية رائحة كريهة سوى رائحة لقاءهما في هذا الوقت:

- سأسافر يوم غد.

قال ذلك وكأنه يريد أن يتخلص من شيء بغيض أمضّه طوال هذه الفترة بأي ثمن كان.

بدت عيناها شفافتان على نحو غير مألوف، وتجلّت فيهما نظرة قلق وخوف من الآتي من الأيام، وكانت نظرتها مصوبة إلى وجهه الذي لم يبد عليه أية علامة على ما كان في قلبه من حب لها.

كانت هناك على الأرض السبخة دجاجة تركض بسرعة يتبعها الديك الأبيض وهو يلهث، مرت من أمامهم، أجتازتهم والديك يركض خلفها، غابا في لوح الجت* الذي في بستان والد "كريم".

أما هو فقد فكر متسائلا: هل نسي حبه لها؟ أم أنه جفاها بعد هذه السنين؟

سَحَرَه الضوء الذي ينبعث من تلك العينين التي كثيرا ما يتيه فيهما، وما فيهما من قوة فوق عادية جذبته نحوهما فبات أسير تلك العينين.

لاذا بالصمت، وألقى كل منهما نظرة الى الآخر وكأنه يراه لأول مرة. كانت قليلة الكلام، تزنه قبل أن تطلقه من فيها، لم تكن ثرثارة كبقية بنات جنسها، وكان جسمها

الملموم في "نفنوفها"* الأحمر بملمسه الحريري، قد بدا له مثل شطب ريحان*، بخصر نحيل، ونهدين قد تكورا مثل نصفي برتقالة ناضجة، حملهما "الستيان" فبرزا إلى أمام، وورك مدور لحيم، فيما شعر رأسها أسود كالليل، يحيط بقمر يضيء المسافة التي بينه وبينها.

أخرجه صوتها من خياله الذي تاه في ثناياه فعاد لها، كما شعر أنها عادت له.

كان هو حبها الأول والأخير، وكانت هي كذلك بالنسبة له، فنزل على رأسها خبر الافتراق كالصاعقة، بل أشد وقعا.

ران صمت لا يعرفان حدوده تغيّر فيه لون وجهها إلى الأصفر، وغاب الدم عنه، أغمضت عينيها ثم فتحتهما وهما يقفان تحت ظل نخلة قصيرة خوص سعفها كثيف تقع في الأرض السبخة الفاصلة بين بستان والدها وبستان والده، كي تخفيهما عن أعين الفضوليين الذي سيفشون سرهما إلى أهلهما لو رأوهما، ويبدأ القيل والقال. ردت عليه متسائلة:

- وأنا؟!

دون أي مقدمات، قال لها وهو يلعب بخصلة من شعرها الأسود نزلت على عينها التي اختلج فيها الدمع، فسدّت كل رؤيا فيها، و"دشداشته"* البيضاء الجديدة قد ارتداها قبل أن يأتي إلى هذا المكان، وزرّر فتحة زيقها الأمامية بإحكام، كأنه في يوم عيد:

- حبيبتي عندما أحصل على الجنسية الأسترالية سآتي إلى هنا وأتزوجك وآخذك معي، كوني على ثقة.

كانت رائحة الزرع والحيوانات، ورائحة روثها وبعرورها، في جو البستان تملأ أنفيهما إن كان ذلك أثناء الشهيق أو كان أثناء الزفير، حتى في الزفير شَعرا بأن الغازات التي تخرج من أنفيهما هي رائحة البستان التي تتصاعد وقت الظهيرة في حرارة الجو وتحت سخونة أشعة الشمس الصفراء وهي رائحة كل الأشياء الخضراء المزروعة، وكل الحيوانات التي تعيش فيه ومخلفاتها الكثيرة.

مدت بصرها إلى حيث تقف بعيدا عنهما مجموعة من الأبقار ذات اللون الأسود وهي تأكل الحشيش الأخضر من الأرض المزروعة، وكلب أسود اللون يقبع على الأرض بالقرب من تلك البقرات وكأنَّه يحرسها من أيِّ مهاجم ينتظر انتهاءها من

أكل الحشائش، فيما صوت "ماطور"* السقي يتعالى في فضاء البستان وقد غطى على أيّ صوتٍ آخر. سألته قائلة:

- كم سنة تبقى كي تحصل على الجنسية؟

ردّ بلا حماس وكأنَّه يريد أن يتخلص من مثل هذه الأسئلة التي تتركه محرجا أمام عيني حبيبته:

- لا أعرف، ربما سنة، أو أكثر.

حلَّ صمتٌ بينهما مرة أخرى كصمت القبور وقت الظهيرة، إلا أن نسمات خفيفة وباردة هبت بهدوء فجعلت الجو منعشا أنساهما كل ما حولهما من أمور وأشياء تحدث أو حدثت.

كان "نفنوفها" الأحمر المورّد وملمسه الناعم كالحرير طويلا يصل إلى حد الكاحلين، و"زيقه"* مغلقا على صدرها البارز كنصفي برتقالة ناضجين. ضمها إليه وكأنَّها المرة الأخيرة التي يحتضنها فيها، فهطلت عيناه بدموع حزن على فراقها.

قالت له وهي تشاركه البكاء:

- وهل تعتقد أنِّي سأبقى صامدة أمام أبي الذي يريد تزويجي من أيِّ شخص يدق الباب؟

فرد عليها وهو يمسح الدموع التي فاضت بعينيه الثابتتين على وجهها وهي تحت حواجبه الكثة، وعينيها المزروعتين بوجهه وهي تحت حاجبيها الرفيعين والتي حفّتهما قبل يومين، وقد أفتر فمه عن ابتسامة صغيرة، وهو يعرف في قرارة نفسه أن لا طائل من البكاء ونزول الدموع في مثل هذه اللحظات المصيرية:

- أنا أعتمد عليك حبيبتي.

ظلّا واقفين فترة طويلة دون أن تصدر منهما أية نأمة أو كلمة، فشعر أن طراوة الجو تمنحه قوة إضافية لكي يودعها هذه اللحظة وهما يقفان تحت هذه النخلة الوارفة الخضرة لكثافة خوص سعفاتها. قبّلها بين عينيها، وشَغَلَه لون وجهها الذي شحب هذه اللحظة التي أدركت أنَّها تعيش لحظة الوداع الحقيقية التي لم تفكر بها يوما ما.

انسحب دون أن يقول كلمة وهو يعرف أن هذه اللحظات هي لحظات صعبة، فراق الفتاة التي أحبها منذ أن كان طالبا في الدراسة الابتدائية، صعبة لا يتحملها، بينما

ظلت هي ودموعها التي نزلت من عينيها "كماطور" والدها وهو يسحب الماء من النهر إلى الأرض المزروعة بألواح "الجت" والخضروات، صامتة لا تريم بشيء.

هدأت أعماقها قليلا وزال عنها الغضب الذي انتابها قبل قليل وزرعت عينيها الغارقتين في ظهره العريض وراحت تراقبه وهو يبتعد عنها وكأنَّه يبتعد عنها دائما في المجهول.

فكرت في نفسها عن المصير الذي ينتظرها لو أنَّها امتنعت عن الزواج من أيِّ شخص يختاره لها والدها بعد أن رفضت أكثر من عريس، قالت وهي تردد مع نفسها:

- بكيف*الله، بكيف الله.

قالت ذلك "حمدية" وخرجت من تحت النخلة التي كانت تقف هي وحبيبها "كريم" قبل لحظات تحت سعفها.

تلفتت إلى اليمين والى الشمال، لم تر أي شخص في هذا الوقت سوى تلك البقرات التي تأكل مما تجود به الأرض من علف لها، تمنت لو أنَّها مثل هذه الأبقار لا تشعر ولا تحس بالفراق التي بدأت تعيشه منذ هذه اللحظة، وحيدة ولا سند لها الآن.

"حمدية" فتاة تجاوزت الخامسة والعشرين من العمر، تخرجت من كلية الآداب قبل سنوات، وجلست في البيت تنتظر التعيين أو الزواج كما قال لها والدها الفلاح الأمي الذي حاول قبل شهر أن يجبرها على الزواج من قريبها "سعدون" الفلاح الأمي أيضا، إلا أنَّها رفضت بشدة مثل هذا الزواج، صاح بها والدها غاضبا:

- لقد كبرت يا أبنتي، يجب أن تتزوجيه.

في هذه اللحظة بالضبط رأت والدها قد هرم كثيرا وأصبح كالناعور* القديم الذي هرم فكان يصيح ويزمجر كلما دوّره الحمار الذي هرم كذلك وهو يعمل بلا كلل.

ردت عليه بهدوء تام، بكلمات انتقنتها جيدا:

- أبي أنا امرأة متعلمة، وقد حصلت على شهادة جامعية بفضلك، وأنتظر التعيين، و"سعدون" رجل أمي وهو يكبرني بعشر سنين، لهذا يا أبي العزيز أرفض الزواج منه وبشدة.

تقدمت نحو أبيها وقبلته في رأسه، سكت الأب على مضض وأخذ يمسك طرف لحيته البيضاء، ويتلاعب بفك أسنانه الصناعي في فمه، وخرج من الغرفة الطينية ذات السقف المصنوع من جذوع النخل و"البواري"* وذات الأثاث البسيط، ليحتفظ ببعض الحُب لابنته "بزر الگِعده"* والوحيدة التي من بين بناته الخمسة المتزوجات قد حصلت على شهادة جامعية. إنَّها صادقة، قال ذلك مع نفسه وهو يترك باب الغرفة ذاهبا إلى البستان.

لم توظّف كمدرسة في أي مدرسة بعد أن تخرجت منذ ثلاث سنوات. كما أنَّ "كريم" زميلها في الكلية وابن جارهم صاحب البستان الثاني، والحاصل على شهادة جامعية، وحبيبها، هو الآخر لم يوظّف أيضا فعمل في بستان أبيه.

تركت "حمدية" مكانها تحت سعف النخلة وسارت في الجهة المعاكسة للجهة التي سار باتجاهها "كريم"، وقد داست بنعالها الاسفنجي "الدود الفارسي"* الذي يسير بخط متعرج على بقعة الأرض السبخة للبستان، وصوت نعيب غراب يأتيها من بعيد في هذه الظهيرة وكأنَّه يعزيها بسفر حبيبها، فيما تكورات جسمها تضيق بثوبها المورّد، وقد انتابها احساس بتوقدها من أخمص قدميها الى قمة رأسها.

***

الفصل الثاني

قبل أن تنتهي سنوات الحصول على الجنسية في استراليا، بدأت ثورة الشعب في تشرين الأول في موطنه العراق، شعر "كريم" أنَّه مطلوب للعراق بدَين ما، ربما هو دَين الماء الذي شربه من نهريه طيلة عمره، أو هو دَين الهواء الذي استنشقه، أو هو دَين الأكل الذي حصل عليه من أرضه، أو هو دَين دراسته المجانية، لهذا فالدَين كبير يطوق رقبته للعراق، فشارك بعض العراقيين في استراليا في التظاهرات التي خرجوا فيها وهم يحملون العلم العراقي ويرددون هتافات وطنية، وساروا في بعض شوارع سدني ووزعوا منشورات تشير إلى ثورة الشعب في وجه الظلم والاستبداد.

كسر حبل الصمت الملفوف حولهما في الغرفة زميله العراقي "حسن" الذي يشاركه الشقة في استراليا، منذ أن قدما سوية في البحر، وقد تفككت السفينة القديمة التي كانت تقلهم، وغرق من غرق، ونجي هو وبعض الهاربين من جحيم العراق، ووصلوا إلى الساحل، انتشلوا من قبل الشرطة الاسترالية التي أرسلتهم إلى "كمب"* خاص بالمهاجرين مدة ستة أشهر، بقوله:

- ألم تعود للعراق؟

تذكر وعده لحبيبته "حمدية". لقد تعهد لها أنه لن يعود إلّا بعد أن يحصل على الجنسية الاسترالية، عندها يمكنه أن يأتي إلى العراق ويتزوجها ويأخذها معه، هزّ رأسه كأنَّه يريد أن ينفض ما علق في تفكيره من أفكار، قال لزميله:

- لا أعرف!

أطلق تلك الجملة ببرود ولا مبالات، وصمت راكد، وصَمَتَ كل شيء حولهما وهو يتذكر حبيبته "حمدية".

كان "كريم" من الذين حصلوا على الشهادة الجامعية، تخرج قبل سنوات من كلية الآداب، وهو بعمر حبيبته "حمدية"، ودرسا سوية من الصف الأول الابتدائي حتى

تخرجا من الجامعة بالاختصاص ذاته، لم يتوظف كأخيه الأكبر منه "ساجد"، فظلّا يساعدون أهلهما في أعمال الزراعة، وتربية الأبقار، في البستان الذي يملكونه، والبيع في "البسطية"*.

وكان اختصاص "ساجد" في الدراسة هو الفيزياء، إذ حصل على شهادة جامعية تؤهله لتعليم طلاب الدراسة المتوسطة والإعدادية هذا العلم. وكـ "حميد" ابن جارهم، وأخ حبيبة "كريم"، "حمدية"، هو الآخر قد حصل على الشهادة الجامعية بعلم الفيزياء قبل سنوات ولم يعيّن كمدرس. تزوج "ساجد" وصار له أبناء، وهم يعيشون في بستان العائلة، "يأكلون من قدر واحد"* مع أجدادهم وأعمامهم وعماتهم، ويملك "بسطية" صغيرة في شارع النيل بالمدينة يبيع فيها الملابس النسائية والولادية.

كان من حسن حظ هؤلاء الشباب أنَّهم أكملوا الدراسة الجامعية، ومن سوء حظهم أنَّهم لم يتعيّنوا بأيّة وظيفة في الدولة فكانوا كالأميين، أو الذين لم يحصلوا على شهادة، فهم الآن يملأون سوق الهرج ببسطياتهم أو ينافسون الآخرين عملهم كسواق وباعة ماء الـ R.O* ونقل البضائع.

في تلك الليلة الاسترالية، والقمر في منتصف السماء وهو يضيء صفحتها، كان "كريم" ممددا على فراشه وهو يشاهد ما يعرضه التلفزيون الاسترالي من مشاهد عن ثورة العراق، وكوب الشاي الفارغ الذي أعده صديقه "حسن" ما زال في يده، رن جهاز الموبايل، وكان المتصل والده من العراق، وأخبره أن أخيه وصديقهم "حميد" قد شاركا في ساحة الحبوبي في التظاهرات منذ أيام وقد جاءا هذا اليوم واغتسلا وغيّرا ملابسهما وعادا إلى الساحة، عندها بللت وجنتيه الدموع، وظل ممددا نصف جسمه في فراشه، مقاطعا ساقيه، صامتا لا يفعل أيّ شيء سوى النظر إلى نقطة حددها في سقف الغرفة، فيما ظلام الليل قد انتشر في الفضاء المحيط بشقتهم، إذ باتت الشقة التي يسكنونها هو وصديقه بيتا للذكريات المعذبة للعينين والقلب.

أحس أن الرائحة الخاصة بساحة الحبوبي التي كانت تتميز بها عندما يسير فيها هي الرائحة التي ملأت أنفه ساعة تكلم معه والده بالموبايل.

نهض من فراشه، خاطب نفسه بصوت عال سمعه صديقه الذي يشاركه الشقة:

- يا ليتنا كنا معكم*.

ثم خاطب صديقه: أتعلم إنَّ الناصرية هي سرة الكون؟ وفي ساحة الحبوبي نطالب بحقوقنا التي منعوها عنا مدة ستة عشر عاما.

لم يكن ذهنه قد شرد إلى أيِّ مكان، أغمض عينيه وتاه في تلافيف ذاكرته التي دفعها إلى أن تنشط في هذا الوقت، تذكر حبيبته "حمدية"، وتذكر أخيه وهو يتظاهر في ساحة الحبوبي، وأخذته الذاكرة إلى "حميد" وجماهير المتظاهرين في الساحة، هزَّ رأسه عدة مرات كي يؤكد مع نفسه أنَّه معهم الآن، خاطبهم وكأنهم من لحم ودم: إنَّكم أبطال بحق.

إن الذي خيّم على ذاكرته تلك الساعة هو أمه، أمه التي أخذت الكثير من مساحة الذاكرة لا تضاهيها سوى حبيبته "حمدية". كان وجهها كقطعة قيمر العرب* الذي تصنعه من حليب أبقار البستان، عندها تذكر أغنية المطرب ناظم الغزالي التي يتغنى بوجه حبيبته فيقول: (يَـاامِّ الـعُـيُـونِ الـسُّـودْ مَـا جُـوزَنْ أَنَـهْ /اوْ خَـدِّح الـكَـيْـمَـرْ أَنَـهْ اتْـرَيـَّكْ مِـنَـهْ)، فيما هو يتغنى دائما بوجه أمه وكان يسمعها هذه الأغنية بصوته الجميل، فتضحك وتضربه بكفها الحنون على خده كطفل صغير يحبو خلفها، فيشعر بحنانها كالسيل الجارف وقد فاض عليه. أمه المرأة الكبيرة التي تعرف بحبه لـ"حمدية"، وكانت في بعض الأحيان تقوم بحراسة لقاءاتهم من أعين الأهل والأقارب تحت ظل النخلة التي خوص سعفها كثيف.

أحس بالكدر فخاطب نفسه:

- ابق مع خواطرك فما من احد يتأملها نيابة عنك عندما تتيه في ذهنك حينما تضع رأسك على الوسادة.

وبغتة رفع صديقه رأسه بعينيه الخضراوين كحشيش بستانهم، الصافيتين كالماء الزلال، ونظرته الحادة، من على الوسادة وهو يضحك بشهية وصوت عالٍ، وسأله:

- أتعرف الأرجنتين؟

لم يندهش لقوله:

- ماذا بهم؟

قال وهو يبتسم:

- اليوم سدّ المتظاهرون ميناء الفاو، ووضعوا اليد على أكثر من مليون حبة مخدرة قادمة من الأرجنتين.

قال لي وهو ينهض من فراشه:

- لقد ملأوا العراق بالمخدرات.

- نعم، وهذا ديدنهم في التخريب، تخريب عقول ونفوس الشباب.

ثم سأله وهو ينهض من فراشه:

- هل قرأت الشعار الجديد للثوار؟

منذ صباح اليوم و"كريم" غالق الموبايل ولم يقرأ شيئا فيه، قال له:

- لم أفتح ألنت منذ الصباح حيث كنت في التظاهر.

قال وهو يجلس على حافة سريره:

- أقرأ. وسلمه موبايله المفتوح.

قرأت: "نازل آخذ حقي".

قال له وهو ينزل من على السرير ليذهب إلى الحمام:

- كل العراقيين لهم دَين كبير كالطوق في رقبة السياسيين الحاليين.

ضحك صاحبي وقال:

- ومن الذي أوصل السياسيين إلى الحكم؟ أليس نحن؟

أجابه وهو يقف قرب باب الحمام قبل أن يدخل ليغسل يديه:

- لم نكن نحن وإنما وصلوا بالتزوير.

- لقد سكتنا على كل شيء يقومون به، حتى التزوير الذي كان يجري أمام أعيننا ونحن شهود عليه.

دخل الحمام وهو يفكر بما قاله صاحبه... وعمّ صمت في غرفتنا التي يحيط بها ظلام ليل استراليا، كصمت القبور وقت الظهيرة، فيما كان تفكيره يجيش بالأفكار فتركته مشغولا.

أوشك الليل ان ينتصف، ومرت الغرفة بفترة صمت طويلة، تخللها صوت الماء من حنفية المغسلة. كان "كريم" يغسل يديه، فيما عاد "حسن" الى مكانه على سرير نومه وهو يقلب بموبايله.

الفصل الثالث

- عندما يكون الوطن منسيا، وضائعا، من قبل سياسيّ البلد في خضم معاركهم على المصالح الشخصية، فإن الوطن هذا يبقى واضحا لأهله الفقراء مهما نساه أولائك السياسيين، أو أضاعوه، وهم قد نسوه فضيّعوا هويتهم الوطنية، بسبب العمالة والمحاصصة، والنهب، والسرقة، والبحث عن المكاسب، وفوق ذلك كان الدستور الذي صاغوه على قياسهم فشرْعَن لهم السرقة والنهب، علينا أن نبقي جذوة الثورة مشتعلة في قلوب وعقول العراقيين الفقراء وبأيِّ شكل كان، حتى لو استخدم الثائرون ما استخدمه بطل حكاية "أواعدك بالوعد وأسقيك يا كمون"* مع أولئك السياسيين.

الثورة يا عزيزي ليست هي صدفة، لم يكن العراقي نائما ونهض من نومه وقام بها، إنه وجد فيها ضرورة كالماء والهواء في جو ملتبس بالاختناق لسوء نقاء الهواء، والماء.

بهذه الجملة أنهى "ساجد" حديثه مع "أحمد" صديقه من بغداد، الذي صعد معه إلى طوابق المطعم التركي المهجور والمتعددة.

رد صاحبه عليه وهو يمسك يده ليوقفه قائلا:

- نعم هذا هو الصحيح. هل سمعت من يتداول الأخبار في أن المطعم التركي فيه إشعاعات منذ الغزو الأمريكي واحتلال بغداد، أتعتقد ذلك؟

- وهل هذا صحيح؟

- هذه إشاعات روجتها قوات الأمن.

كانت الرائحة في جو ساحة التحرير تزكم الأنوف وتؤكد على أن الساحة وما جاورها قد ضربت بغاز غير ما تتضوعه زهور وورود شجيرات حديقة الأمة من روائح طيبة ومنعشة، وقد وصل التلوث بهذه الرائحة غير الطيبة والمؤذية للعيون والحناجر إلى طوابق المطعم التركي، أو "جبل أحد"، كما عُرف عالميا.

عدل "ساجد" من وقفته، وترك "أحمد" يقوده إلى الطوابق العليا فصعد مرتقيا سلالم السلم، مواصلا سيره صاعدا إلى الطوابق الباقية، وهو يفكر بما قاله صديقه البغدادي "أحمد" عن إشعاعات المطعم.

كان المطعم التركي بطوابقه العديدة مركزا للتسوق في الثمانينيات، وقد أطلق عليه بعض المتظاهرين لقب "جبل أحد". وملأت طوابقه المئات من المتظاهرين في فجر يوم تشريني بارد وسماء بغداد مثل طريق سالك لبعض تكتلات الغيوم البيضاء القادمة من شمال العراق وهي تتجه إلى جنوبه، متشكلة بهيئة حيوانات وطيور، تتشكل وتختفي بسرعة.

المطعم التركي بناء يرتفع فوق الأرض عدة طوابق، يقع في بداية جسر الجمهورية من جهة الباب الشرقي، وكان يشغل طوابقه العليا مطعم يقدم الوجبات التركية لهذا سمي بهذا الاسم، وباقي الطوابق هو مركز للتسوق، ثم تحول إلى هيئة للشباب والرياضة حتى احتلال بغداد من قبل الجيش الأمريكي الغازي، وفي الطابق الأرضي منه موقف للسيارات الصغيرة ببوابة هي عبارة عن أنبوب ممتد عرضيا يفتح برفعه إلى الأعلى، ويغلق بإنزاله إلى الأسفل، وكان المطعم شبه مهجور هو والطوابق الأخرى، فوجد المتظاهرون أن من يسيطر عليه يكون الأمان والنصر حليفه كما كان "جبل أحد" قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وعليهم أن لا يفرطوا به فتحتله القوات الأمنية عندها يفتح باب من أبواب جهنم على المتظاهرين.

أصوات المتظاهرين الذين احتلوا طوابقه تصل "ساجد" وهي تردد شعار "بالروح بالدم نفديك يا عراق"، شعر وكأن الفداء بالروح وبالدم طال عائلته ليبقى العراق وطن حر وللجميع، إلا أن صوت الهتاف قد أخرجه من ذلك الشعور المحبب.

كان هناك بعض المتظاهرين صعدوا على سطحه وهم ينشرون علما عراقيا كبيرا نزل من سطح المطعم حتى وصل إلى طابقه الأرضي، ولافتة كبيرة مكتوب فيها "الخائفون لا يصنعون النصر".

شق "ساجد" طريقة في زحام المتظاهرين، الصاعدين والنازلين، برفقة صديقه"أحمد"، وصعد إلى السطح فهاله عديد القوات الأمنية المرابطة على جسر الجمهورية بعجلاتها ومدرعاتها وأسلحتها الثقيلة، فيما كان الماء اللامع تحت وهج الشمس يجري من تحته منذ أن بدأ العالم في التكون والنشوء.

كانت ضفته الشمالية منبسطة ومليئة بالحدائق والمتنزهات، فيما جهته اليمنى صعبة المسالك وهي مرتفعة عن مستوى الماء فيه.

كان هناك رجل أمني يهيئ بندقيته ليرمي منها قنبلة دخان على المتظاهرين، فيما المتظاهرون على أرض ساحة التحرير عُزّل من أي شيء سوى قوة إرادتهم، وصوتهم العالي بالهتاف للعراق، و"تك تكات" أصدقاءهم المساكين الذين يبحثون عن لقمة العيش لهم ولعائلاتهم وهي تتجول في الساحة لمساعدة شباب الثورة.

ترك "ساجد" و"أحمد" السطح ونزلا على سلالم الدرج فلاحت لـ"ساجد" من بعيد إحدى النساء الكبيرات توزع لفات* أكل على سكنة المطعم التركي الجُدد من المتظاهرين فسال لعابه كثيرا وبدأت معدته تتقلص وتتمدد وهي تدفع الجوع عنها، فترك المرأة وهي توزع اللفات وواصل نزوله على سلالم الدرج، جائعا.

كان "ساجد" قد قدم من الناصرية قبل يومين ليشارك أخوته من أهل بغداد بالتظاهر لبعض الأيام، فله أصدقاء كُثر بينهم، جمعته وإياهم مقاعد الدراسة قبل سنوات مضت في جامعة بغداد، وحتما لازال الكثير منهم عاطلا عن العمل بفضل حكومات المحاصصة والسرقة والنهب والحصول على الامتيازات الكثيرة لأنفسهم ولمعارفهم، وكان أول شيء صادفه عند وصوله إلى بغداد ونزوله من "التك تك" في ساحة التحرير لافتة تقول (بأمر الشعب يمنع تداول الكلمات الطائفية "شيعي، سني،مسيحي، وغيرها" موقعة باسم "العراق يجمعنا"). ارتاح جدا لكلمات هذه اللافتة التي أرجعت العراقيين إلى ما قبل الغزو الأمريكي واحتلال بغداد وهم أخوة متلاحمين.

عندما وصل إلى الطابق الأرضي استأذن من"أحمد" وأخذ ركنا خفيا في المطعم، حيث انتحى جانبا فخفتت أصوات المتظاهرين، راح يتصل بصديقه "حميد" في الناصرية، ويخبره عن ساحة التحرير و"التك تك" والرسوم الثورية التي انتشرت على جدران نفق التحرير، والأغاني والأناشيد، والمفرزة الطبية التي يعمل فيها كادر تمريضي مهيأ بأبسط وسائل العلاج، تفوح منها رائحة الديتول والسبرتو، والمطعم التركي بطوابقه العديدة، وأرسل له مجموعة من الصور التي التقطها بموبايله لهذه الفعاليات.

عندما أصبح في الشارع رأى مجموعة من شباب التظاهر تحت جسر الجمهورية مجتمعين وقد توضح لمن يراهم وهم يحركون أيديهم أنهم يناقشون ما يفعلونه من فعل ثوري ضد قوات الأمن وقوات الشغب ليعبروا إلى الضفة الأخرى والوصول الى المنطقة الخضراء.

وهو يعبر الشارع، توقف قليلا،، إذ لفت انتباهه مجموعة من الشباب يتحدثون مع فتاة عشرينية قد بالغت كثيرا بمكياج وجهها وصبغته بالألوان وجعلت منه لعبة بيد

طفلة وهي تزوقها بلا فهم ولا علم، حتى صار كلوحة سريالية لفنان مبتدئ، كان حديثهم بصوت عالي وهم يطردونها من الساحة. أمرها أحد الشباب الأكبر سنا:

- رجاء أخرجي من الساحة؟

جاءت فتاة من المتظاهرين تضع كمامة طبية على أنفها وفمها ودفعتها دفعا بيديها حتى أوصلتها بالقرب من ثانوية البنات في الجهة الثانية للمطعم التركي وتركتها وعادت وهي تتأفف بشدة.

سأل "ساجد" الشاب ذاك عن السبب الذي دعاه الى طرد الفتاة. فأخبره بأنها من فتيات الشارع اللاتي دفعت بها وبغيرها من الفتيات الفاتنات الأخريات، الأحزاب السياسية لإغواء الشباب المتظاهر ليشيعوا أخبارا عن تهم فساد يقوم بها المتظاهرون، وهذه الفتاة ضايقت الشباب كثيرا لإسقاطهم في حبائلها وإخراجهم من الساحة والتظاهر.

تابع "ساجد" طريقه فمرّ بمكان خصصه شباب الثورة لِما يتركه الشهداء منهم الذين سقطوا جراء الرصاص الحي والقنابل الدخانية، من أشياء ولوازم وجعلوه متحفا رفعوا لافتة تشير إلى أنه "متحف شهداء ثورة تشرين" يضم خوذا، وبعض الملابس، وأعلاما، وكتبا، وموبايلات، وأشياء أخرى.

وعلى الرغم من أن "ساجد" لا يحب كثيرا التفرج على مخلفات الشهداء إلا أنه تفرج على محتويات المتحف وتذكر نضالهم وسقوطهم شهداء.

بدأ المغيب يقطر سمرة داكنة وهو يتمدد على الساحة والمطعم التركي والبنايات المجاورة بسرعة عجيبة حتى الأضوية في الشارع لم تستطع اللحاق به فأنيرت متأخرا.

***

الفصل الرابع

كان طقس هذه الليلة التي مضت باردا جدا، والسماء ملبدة بالغيوم، وقد اختفى القمر من صفحتها، ولم تكن البطانية الثقيلة تجلب الدفء في أوصال "حميد" فتركته يرتعش وكأنه في ثلاجة لإنتاج قوالب الثلج

الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف عندما تذكر وهو مستلق في فراشه في خيمة المتظاهرين، والشباب متجمعين في حلقات يستذكرون ما شاهدوه في النهار، والبعض منهم انتحى جانبا ليتصل بموبايله بأهله أو أحد معارفه، تذكر ما فكر فيه نهار هذا اليوم من أمر، لهذا قام من مكانه واتجه الى مكان نوم "رافد" الذي لا يبعد عنه كثيرا حيث وجده قد لف رأسه بياشماغ مطرز بخيوط سوداء* وقد جعله كالنقاب على وجهه.

كان "رافد" صاحب البسطية الصغيرة في ساحة الحبوبي، والحاصل على دكتوراه في الكيمياء، وهو ابن الحاج سلمان البناء الذي قضى عمره وهو يشيّد المؤسسات الحكومية ودور المواطنين، متمددا على سجادة صوفية كالحة اللون لقِدَمَها البيّن والواضح، ويتكئ على وسادة محشوة بصوف الغنم متصلبة في أكثر من مكان وقد وضع عليها "خاولي"* أزرق "ساده"* وهو يقرأ في رواية "التشابيه"* لكاتب من الناصرية، طوى الصفحة التي وصل اليها وأغلقها ووضعها قرب وسادته، ثم قال:

- تروي هذه الرواية عن استغلال الحكومة والأحزاب المحظورة للدِين وبعض ممارساته كما يحدث الآن بإتحاد الحكومة والأحزاب الدينية باستغلال الشعائر الدينية ليمرروا ما يريدون تمريره من أفكار وأمور لا يرتضيها أفراد المجتمع، فيما المجتمع قد وقف بعيدا عن اتحادهم هذا غير المعلن مستغلين بعض الشعائر الدينية.

كان كثيرا ما حاول أن يندم على السنوات التي قضاها في الدراسة وحصوله على دكتوراه في اختصاصه وهو الآن في عرف أصدقائه يسمى بـ "الدكتور صاحب البسطية" إلا أنَّه يعتذر دائما لنفسه التي قدمت ما في جهدها حتى حصل على تلك الشهادة.

كان الضوء شديدا وهو ينزل على صفحات الرواية فراحت عيناه تتغوّشان فيهما صورة الحروف والكلمات من خلف النظارة الطبية، أخذ النعاس يداعب جفونه فيطبقها، أغلق الكتاب ووضعه تحت الوسادة، خلع نظارته ووضعها في علبتها، حاول أن ينهض إلا أن يد صديقه "حميد" أبقته في مكانه، سلم عليه فرد السلام وتحرك قليلا لكي يفسح له المكان على السجادة وقال:

- تفضل اجلس يا "حميد".

تمدد على السجادة الصوفية كما كان يفعل "رافد"، فيما خرج بعض الشباب من الخيمة، ونام آخرون. قال "حميد" متسائلا:

- هل رأيت الهيكل الكونكريتي للبناية المشيدة في مكان بناية المحافظة القديمة التي هدمها الرتل الخامس بعد احتلال بغداد؟

هز "رافد" رأسه وأجاب ببرودة كالثلج:

- نعم رأيتها أكثر من ألف مرة.

ضرب "رافد" الهواء بكفه وهو يريد أن يبعد الذبابة الوحيدة التي حامت حول مكانهما منذ لحظات.

توقفت "ستوتة"* ونزل سائقها الذي لف رأسه بيشماغ ذي خيوط سوداء وبيده لافتة خط عليها العبارة التالية: "بيوت الصفيح عندما تسخن في الصيف تنفجر"، وسأل عن أحد المتظاهرين، وعندما لم يجده خرج وصعد "ستوتته" وذهب.

قال لـ"رافد":

- سأقول لك ما يجب أن نفعله هذه الليلة، على الشباب أن يسيطروا على البناية تلك ويجعلوا منها مثل المطعم التركي ويسمونه "المطعم الذي قاري" تيمنا ببناية الثورة التشرينية في بغداد، وعلى شباب ساحة الحبوبي أن ينتبهوا لذلك خاصة والبناية تشرف على جسر الحضارات وهو جسر مهم.

بقي صامتا لبرهة، وكان ينظر إلى صاحبه بعيني ذئب جائع، سأله مستفسرا:

- لماذا؟

رد عليه:

- قرأت مرة على الفيسبوك لكاتب من الناصرية: (يا بناية المطعم التركي، يا كعبة العراقيين، ويا جبل "أحد"، إن السيطرة عليك هو حماية للعراق وأطفاله وشبابه وشيوخه، فأحفظ أمانة الأبطال العزّل الذين اعتلوك كي يؤمنوا سلامة المتظاهرين في ساحة التحرير.

إن جبل أحد هو الجبل الذي كان بعض الرماة المسلمين في معركة أحد، قد سيطروا عليه، وعندما سمعوا هتافات النصر، نزلوا منه وتركوه مكشوفا، فإستغل القائد خالد بن وليد الفرصة وأخذ مجموعة من المشركين واحتلوه ومنه ضربوا المسلمين، أي أن الجبل من يحتله يكون له النصر)، وأظهر الكتابة على موبايله وأراها له.

رمقه"رافد" بنظرة قلقة لا عصبية فيها:

- كيف نصل لها وقوى الأمن تسد الطريق في شارع النيل والمؤدي لها؟

- سنتحدث مع بعض الشباب الثائر في الساحة عن ذلك وبعدها سنبلّغ بعض الشباب المتظاهرين بسرية تامة الذهاب إلى البناية من أماكن كثيرة، ويجتمعون قرب الجامع الكبير، وبناية مديرية البلدية التي صارت جامعا بعد الاحتلال، وبناية فندق شبعاد، ومقاعد مقهى "مسلم" الصغيرة التي يؤمها الأدباء، ونحدد لهم وقتا للتسلل إليها بهدوء وانضباط عال.

هزَّ "رافد" رأسه موافقا، وأضاف:

- يجب أن يأخذوا معهم صور الشهداء وبعض اللافتات لينشروها على البناية.

- نعم نحن بحاجة الى الشهداء في الدنيا أكثر منه في الآخرة كي يستمر نضالنا ولا يتوقف.

بعد الساعة الثانية عند فجر اليوم الثاني قُطع التيار الكهربائي عن المنطقة، وقد ساعدهم الظلام الحالك في تلك الليلة التشرينية، فكان فرصة للشباب الذين أخبرهم "ساجد" و"حميد" وبعض الأصدقاء الذين عرفوا بقصة المطعم التركي البغدادي، للانتشار في الشوارع والأزقة للوصول إلى الهيكل الكونكريتي الذي اختاره "ساجد" ليكون مثل المطعم التركي في محافظة ذي قار.

ما أزعج "حميد" و"رافد" إبقاء تسمية البناية في بغداد، وكم كانا يأملان بتغيير أهل بغداد اسمها، وقد تحقق ما كان يتمنيانه بعد أيام عندما أصبح اسمها "جبل أحد" عالميا.

عند انبلاج الساعات الأولى من فجر يوم تشريني وقد هبّت نسمات باردة في الجو تجعل الجسم يرتعش بقوة، تفاجأ أهالي الناصرية من الساكنين بجوار ساحة الحبوبي على صوت دوى في الجهات الأربعة للمدينة القديمة وهو يهتف عاليا: (بالروح، بالدم نفديك يا عراق) قادما من الهيكل الكونكريتي الذي دعي بـ"المطعم الذي قاري".

تقع البناية التي مازالت غير مكتملة البناء سوى هيكلها الكونكريتي بعد أن هرب مقاولها ومعه الأموال المخصصة لها، قريبا من نهر الفرات وأمامها ساحة كانت تدعى ساحة "١/حزيران" فيها نصب لامرأة تحمل علما كتب أسفله "١/حزيران"، ويقع مقابل هذا النصب نصب آخر للجندي العراقي حسين ارخيص شاهرا مسدسه وهو واقف على جثمان الجنرال الانكليزي "جيفرسون" بعد أن أرداه قتيلا، وبقتله قتل في نفوس العراقيين الرهبة والخوف من الانكليز المحتلين الذين احتلوا العراق بعد عام ١٩١٤ وانتهاء الحكم العثماني، وعندما دخلت القوات الانكليزية الناصرية بعد الغزو عام ٢٠٠٣، رفعوا تمثال الجنرال الممدد والمقتول من النصب وأبقوا تمثال حسين ارخيص فقط شاهرا مسدسه فوق رأسه كأي عسكري آخر فانمحى من ذاكرة بعض أهالي الناصرية من الأجيال التي ولدت بعد عام ٢٠٠٣ قصة هذا البطل.

كانت الجماعات التي اتصل بها "رافد" و"حميد" قد نفذوا، وبسرية تامة ومنضبطة، ما طُلب منهم، وهم محمّلين بصور شهداء ثورة تشرين واللافتات الملفوفة بعناية، انتشروا في طوابق الهيكل الكونكريتي للبناية والتي كانت في يوم ما مقرا لمحافظة ذي قار وهي تعج بالمراجعين وقتذاك.

فتحت لافتة طويلة من سطح البناية العلوي إلى الطابق الأول مكتوب فيها (أريد وطنا حرا)، وصور الشهداء منتشرة على حافات طوابق البناية، والمتظاهرون الشباب يرددون بأعلى صوتهم: (بالروح بالدم نفديك با عراق).

أدار رجال الأمن الواقفين بداية شارع النيل قرب ساحة الحبوبي وجوههم وقد أذهلتهم المفاجأة فرفعوا دروعهم الزجاجية أمام وجوههم وهيأوا الهراوات وقنابل الغاز بدقة كاملة استعدادا لأي طارئ، فيما انتشر الهتاف على ألسنة الثائرين في ساحة الحبوبي.

***

الفصل الخامس

بنظرة طائر من الأعلى لساحة الحبوبي، كأن عيونه ترصدها، تبدو المدينة متماسكة، وهي كطائر الفينيق الذي ينهض من الرماد مرة أخرى بعد احتراقه فبدت شمس تشرين المرتفعة في سماء مدينة الناصرية خجلة ويلفها الحياء وهي ترسل أشعتها التي تحاول أن تدفئ الهواء الهارب منها ليبقى هواءً باردا، يشوب ضياءها احمرارا شاحبا كأنها صبية خجلة، والناس تحت أشعتها في الساحة في حماس لم تعتاد مثله وهو يزداد قوة كلما جاءت مجموعة من المتظاهرين المشرعة أيديهم إلى الأعلى تدور حول حديقة الحبوبي، مرددة هتاف "بالروح بالدم نفديك يا عراق"، و"كلا كلا للأحزاب".

طارت مجموعة من العصافير الصغيرة من حول تمثال الحبوبي وكأنها تشارك المتظاهرين حركتهم الموحدة، وهتافهم المدوّي، وابتعدت في الفضاء المفتوح من أمامها وعادت كرة أخرى إلى حيث ينتصب التمثال الواقف بشموخ وتحدي تحت وهج الشمس، وبعد حين خرجت هذه العصافير كـ"زرة سمك"* في سرب من بين ثنايا التمثال وطارت ثانية فوق رؤوس المتظاهرين، حيث حوّمت أكثر من مرة وابتعدت حتى اختفت في الفضاء الواسع والمجهول.

بعد أن أنهى المتظاهرون من أصحاب الأرواب السود* تظاهراتهم وهتافاتهم بإسم العراق وضد العملية السياسية والأحزاب الفاسدة، والمطالبة بتغيير الدستور، كما ردد قبلهم أصحاب القمصان البيض من طلاب المدارس والكليات الذين شاركوهم معلموهم ومدرسوهم وأساتذتهم في هذا الكرنفال الاحتجاجي والثوري، راح "رافد" يلقي محاضرة على جمع غفير من المتظاهرين السلميين في ساحة الحبوبي الذين تنوعوا بين أصحاب الصداري البيض طلاب كليات الطب والصيدلة، والأرواب السود، المحامين، والقمصان البيض، طلاب المدارس، وأصحاب العقال والياشماغ من العمال والفلاحين والكسبة، وقد أمسك بيده قنبلة دخان فارغة أخذها من مخلفات القنابل التي وقعت عليهم بعد أن أرسلتها لهم القوات الأمنية، وقد كان اختصاصه في الدراسة هو علم الكيمياء الذي حصل فيه على شهادة الدكتوراه. اعتلى

إحدى "الستوتات" وأخذ يتحدث كمعلم يكرر درسه أكثر من مرة، وبدأها بسيداتي سادتي، ثم تلا المحاضرة عن ظهر قلب:

- تعد قنابل الغاز المسيل للدموع من الوسائل القديمة المستخدمة في فض الاحتجاجات والمظاهرات ومكافحة أعمال الشغب، وهي تتكون من رذاذ الفلفل الأسود.

وتنقسم القنابل إلى ثلاثة أنواع، أولها غاز الـC.N الأقل تأثيرا لأنَّه يتلاشى سريعا في الهواء، أما النوع الثاني فهو الـC.S وهو غاز متوسط القوة، ولكنه أكثر فاعلية من الغاز السابق، كما أنَّه الأكثر استخداما.

ويعد الغاز الثالث (C.S) أكثر خطورة وهو محرم دوليا، وتبلغ قوة هذا الغاز نحو عشرة أضعاف غاز الـ C.S، وتعد القنابل التي تعتمد هذا الغاز نادرة الاستخدام ومحرّمة دوليا لآثارها البعيدة المدى، فضلا عن أنها قد تسبب الإصابة بالسرطان.

تختلف زنة هذه القنابل، ففي العادة تزن عبوات الغاز المسيل للدموع التي تستخدمها الشرطة في أنحاء العالم، ما بين ٢٥ إلى ٥٠ غراما ولكن وزن بعضها يصل لعشرة أضعاف هذا الوزن.

وفي بعض الأحيان، تكون هذه القنابل على شكل طلقات صغيرة، وفي حالات أخرى، تكون قنابل يدوية أو قنابل تُطلق من بنادق.

وإذا كان الهدف الأساسي لهذه القنابل هو تفريق التظاهرات، فإن تأثيرها ينعكس على صحة المتظاهرين، ولا تقتصر على ذرف الدموع، بل تؤدي أحيانا إلى صعوبة في التنفس وحالات اختناق وسعال، وحساسية في الجلد، والإصابة بحروق، وقد تصل إلى الشعور بالغثيان، وتقود في حالات نادرة إلى تقيؤ متواصل قد يؤدي إلى الموت.

ويمكن للمتظاهر أن يتفادى هذه الآثار، تابع حديثه الذي جعله يشبه المحاضرة: عبر القناع الواقي من الغاز، والنظارات محكمة الإغلاق على العينين، إضافة إلى بعض الطرق البديلة مثل غسل الوجه بالماء البارد، ومزج الخميرة مع الماء، وتناول المشروبات الغازية، وتنشق البصل والخل.

سأله أحد الطلاب المتظاهرين عن وسيلة قذفها، رد قائلا:

- تقذف بواسطة اليد، أو بواسطة بندقية خاصة كما تقذف الآن على المتظاهرين.

قال أحد المحامين المتظاهرين وهو يرتدي روبه الأسود:

- استاذ أين تصنع مثل هذه القنابل؟

رد عليه:

- دول كثيرة تصنعها، لكن لو قلت أي قنابل تقذفها قواتنا الأمنية على المتظاهرين لقلت لك إنَّها من النوع الذي يزن ٥٠ غراما، وترمى على رأس المتظاهر مباشرة، إذ يجب أن ترمى على شكل قوس.

سكت كمن ينتظر سؤال من تلاميذه الأذكياء إلا أن أي سؤال لم يطرح من الواقفين حوله، قال:

- يجب أن نتجنب مثل هذه القنابل، وعلينا أن نلبس خوذة لنحمي رؤوسنا منها، ونهيئ كمية من "الخميرة" المحلولة بالماء، وكذلك الببسي كولا، وهذا ما يتيسر في هذه الساحة لو ضُربنا بمثل هذه القنابل.

سألت فتاة تلف شعر رأسها بشال ملون، وترتدي بنطلون وقميص تبدو كطالبة جامعية:

- كيف يموت الشباب في ساحات التظاهر بهذه القنابل؟

رد "رافد" عليها:

- إنَّ الرامي يصوّب بندقيته على رأس الشاب ولم يرمها على شكل قوس كما هو مصمم لها في الرمي. وأشّر بيده مثل قوس رمي القنبلة.

انحل المتظاهرون من تجمعهم حول "الستوتة" التي كان يقف عليها الأستاذ "رافد" يلقي محاضرته عن قنبلة الدخان، وتفرقوا حول الساحة الدائرية وفي شارع الحبوبي، فيما جاء صوت من كان على "المطعم الذي قاري" يتردد بهتاف واحد "بالروح بالدم تفديك يا عراق" فاحتار عندها رجال القوى الأمنية، إرتخت عندها قبضاتهم وهي تمسك بالدروع الشفافة، ووضعوا هراواتهم في مكانها فتدلت على جنبهم في فراغ غير مسيطر عليه، وراح البعض منهم يردد الهتاف ذاته بصوت خفيض مشاركا المتظاهرين ثورتهم التشرينية.

***

الفصل السادس

وعلى ايقاع نبض الحياة في ساحة الحبوبي بناسها، وأشجارها، وطيورها، وشوارعها وأرصفتها التي ما انفكت تتحمل ثقل من سار عليها، وعلى شاشة "بلازمة" كبيرة نصبت على حامل حديدي، ختمت امرأة خمسينية بصوت عالٍ اهزوجتها باللهجة الدارجة وهي تشّرع يدها عاليا في الهواء كأي رجل مهوال يهزج في حومة الرجال لمناسبة معينة:

- "يذكرها البَعْدَه بكاروكه"*.

وتعالت كل الحناجر في ساحة الحبوبي بصوت عالٍ من بعدها "يذكرها البعده بكاروكه"، وامتدت الإهزوجة كالنار في هشيم الفضاء الذي يحيط برجال قوات الأمن إلى شارع النيل حتى نهر الفرات الذي يلمع ماؤه وهو يجري من تحت جسر الحضارات منذ بدأ العالم بالتكون والنشوء، وضفته الشمالية منبسطة ومسكونة بالدوائر والمواطنين المتنزهين، فيما جهته اليمنى صعبة وهي مرتفعة عن مستوى الماء فيه... وتسلق طوابق البناية التي يحتلها المتظاهرون والتي سموها تيمنا بـ "المطعم التركي" الذي عرف في عالم الفيسبوك العالمي بـ "جبل أحد"، بـ "المطعم الذي قاري".

راحت ساحة الحبوبي تتردد في أرجائها اهزوجة المرأة الخمسينية، "يذكرها البعده بكاروكه".

كان الرجال والنساء، والشباب والشابات، والصبيان والصبيات، يدبكون على الأرض وكأنهم يخرجون النفط منها، بدبكاتهم القوية بسرعة ورشاقة وتنظيم غير مخل بترديدهم كلمات الاهزوجة.

أخرجت المرأة الخمسينية "قصيبتها"* من تحت "فوطتها"* وبمقص أخرجته من حقيبتها اليدوية راحت تقص القصيبة الطويلة والثخينة حزنا على ولدها الشهيد، وما زالت تردد بصوت عال " يذكرها البعده بكاروكه".

كانت القواعد الخاصة، وغير المعلنة، لساحة الحبوبي هي التي تتحكم بكل من فيها، عندها تذكر "ساجد" أخيه "كريم" ورسالته "المسج" التي استلمها قبل قليل بواسطة موبايله وهو يقف قرب صاحب "ستوتة" وهما يرددون الاهزوجة نفسها، أدهشته الرسالة أول ما قرأها وتركت ذهنه في حالة تشويش. تساءل مع نفسه: ووعده "لحميدة"، ولأهله كلهم؟ كيف يعود إلى العراق ولم يستلم الجنسية الاسترالية؟

أخرج علبة السيكاير من جيبه واستل سيكارة منها وأشعلها وأخذ نفَسا طويلا منها، وقبل أن يأخذ النَفس الثاني من السيكارة مرَّ به صديقه "حميد" وسحب السيكارة من فيه ودخل الخيمة وهو يضحك بشهية وبرفقته ولده البالغ خمس سنين وقد رافق جده للتو وهو يبكي من شدة الخوف والرعب من التجمع والأصوات العالية ومما رآه من ذبح خمسة خرفان من الغنم جاء بها فلاح بسيط إلى المتظاهرين لغدائهم.

اتصل "ساجد" بوالده وأخبره بنية "كريم" بالعودة إلى البلد، فساد صمت طويل بينه وبين والده، ومرَّ الوقت دون أن يجري بينهم كلام، وبغتة هتف والده فرحا، مرحبا بإبنه، في الموبايل بعودته، وكذلك والدته التي "هلهلت"* عاليا فسمع "هلهولتها" بالموبايل، وحتما أن "هلهولتها" امتدت إلى بستان أبي "حميدة" والى "حميدة" وإنها فرحت كثيرا.

لم ينتبه "ساجد" لسحب السيكارة من فمه، أو أنَّه تركها تنسحب من فيه لا مباليا، ولضحك "حميد" وهو يدخل الخيمة هو وابنه الصغير "مجيد" الذي ما زال ينشق باكيا، بل كان كل تفكيره مشغولا في رسالة أخيه من استراليا وقد صعدت الحرارة إلى جبهته فبات كالمحموم.

كان ابن "حميد" يحمل على ظهره حقيبة صغيرة تشبه الحقيبة المدرسية، وضعت أم الطفل بعض مستلزمات حاجة طفل بعمره، وكذلك بعض المأكولات التي أعدتها له. وقد وضع أبوه على رأسه قبعة بلون أبيض مرسوم عليها علم العراق.

كان الطلاب قد تحركوا حول ساحة الحبوبي الدائرية وهم يرددون هتاف "اسمع شتكول الطلاب، كلا كلا للأحزاب"، فيما كانت هناك أكثر من لافتة بيضاء تشير إلى الكلية التي ينتمي لها هؤلاء الطلبة والطالبات.

مرَّ من أمام الواقفين مجموعة من أصحاب الصداري البيض، طلاب كلية الطب والصيدلة وهم يرددون هتاف "نريد وطن وليس فاسدين"، احد الطلاب رفع لافتة صغيرة مكتوب فيها "ليت دواء السرطان متوفر كمسيل الدموع". قال أحد الواقفين على رصيف الحديقة:

-هذا طالب في كلية الطب مصاب بالسرطان.

عندها نزل المطر على الرؤوس وعلى اسفلت الشارع والخيم وملابس رجال قوى الأمن وقوات معالجة الشغب والأشياء فإغتسل الجميع بمائه وهو ينزل لذيذا على الجميع، بعد ذلك هبت ريح خفيفة على الجميع، فهدأت الجموع وجلس رجال الأمن وقوات معالجة الشغب مستظلة بأي شيء على مقربه منهم.

قال هذا الشخص الذي يعرفه:

- طالب في كلية الطب ولم يحصل على دواء السرطان، أي دولة هذه التي تستهين بشعبها؟

قال آخر كان يحتمي بمعطفه وهو يضعه على رأسه:

- ألا ترى كيف ثار عليها الشعب.

خرج "حميد" وابنه الذي سكت عن البكاء وبيده علم العراق الصغير يلوح به ويبتسم فرحا.

كان "حميد" يحب أن يشارك أبنائه لعبهم، والمزاح، والضحك معهم.

وقف الاثنان "حميد وأبنه" مع من وقف من جموع المتظاهرين تحت رذاذ المطر الخفيف، اكتض نهر الشارع والرصيف المرصوف بالشتايكر بالمتظاهرين. جثمت بعض قطرات المطر على أوراق شجيرات الآس المحيطة بتمثال الشاعر والمجاهد محمد سعيد الحبوبي الذي اغتسل بالمطر فشع لونه. وتنقعت بعض الأوراق في قطراته النازلة بكسل كالتمثال المصبوغ باللون الأصفر نفسه، ففاحت في أرجاء فضاء الحديقة رائحة منعشة ممزوجة برطوبة محببة، وزال عنها الغبار.

مرَّ من أمامهم جمع غفير من المتظاهرين وهم بزيهم العربي*، وكان والد "حميد" من بينهم وقد لوح بيده لـ "ساجد" و"حميد"، وكان بيد البعض منهم بيارغ العشيرة التي ينتمون إليها وصوت يجمعهم هو الهتاف العراقي المعروف "بالروح، بالدم نفديك يا عراق".

انقطع المطر واغْلَقت ثقوب غطاء "براميلها"* الصامتة التي فتحتها قبل قليل على الناس والأشياء، فتبلل الجميع برذاذ مائها البارد، حتى الشوارع ابتلّت فبان لون اسفلتها الأسود الناصع بعد أن ذاب الغبار الذي كان منتشرا عليه، فمسحت السماء عن صفحتها ذلك اللون الحزين ولبست ثوبا لازورديا أصفى وأرق مما كانت عليه.

اقترب "حميد" الذي بلل ملابسه وشعر رأسه ووجهه المطر من "ساجد" الذي حمل "مجيدا" الصغير بعد أن بلله ذلك المطر فأخذ يرتجف كالسعفة وقبّله في وجهه وظل حاملا اياه وعلم العراق ما زال عاليا وهو يلوح به.. قال "حميد" محدثا "ساجد":

- هل نذهب إلى المطعم الذي قاري الآن؟

أومأ له برأسه علامة للإيجاب والطفل ما يزل يلوح بالعلم العراقي الصغير وهو بين يدي "ساجد".

تحرك الاثنان دون أن يتفوه أحدهما بكلمة، رقت ملامحه كثيرا، وقد حمل "ساجد" الطفل على متنه بعد أن كان بين يديه، وقد أفرد رجليه حول رقبته وما زال العلم العراقي يلوح بين يديه، وانسلا بجانب مطعم كباب ذي قار وصاحبه "الأعمى"* جالس على منضدة "الدخل"*، وأخذا طريقهما سوية متجنبين الزحام ليتفاديا الاصطدام بالناس. "ساجد" بقامته الطويلة والنحيلة و"حميد" بقامته القصيرة والنحيلة أيضا والتي عانى الكثير منها في الجامعة وبين الطالبات خاصة.

سأل "حميد" "ساجدا" بعد أن رآه يبتسم:

- بماذا تفكر؟

- بلا شيء.

- كيف وأنت تبتسم، شاركنا ما تفكر فيه.

ضحك "ساجد" بصوت عالٍ حتى أنَّ الناس في الشارع أداروا رؤوسهم نحوه باستهجان. قال:

- لقد بال ابنك عليّ.

ضحك "حميد" ومدَّ يديه إلى حيث يجلس حول رقبة "ساجد" وحاول إنزاله إلا أنَّ "حميد" رفض وأكملا سيرهما نحو المطعم الذي قاري.

في طريقهم إلى المطعم سمعوا شاعرا عاميا ينشد قصيدة عامية وهو يقف على "ستوتة" بيضاء بين جمهور غفير من المتظاهرين، أنشد:

- "الحكومة نايمة وهذا الرصاص شخير".

ضحكوا سوية وقال "ساجد":

- نعم إنهم نائمون والرصاص الحي الذي يرمونه على المتظاهرين هو ازعاج من هذا النائم للمتظاهرين، كالشخير.

صعدا إلى سطح البناية، رأى "ساجد" و"حميد" نهر الفرات الذي يشق الناصرية إلى نصفين، الشامية والجزيرة، كما أن نهر دجلة الذي يشق بغداد إلى نصفين، الكرخ والرصافة، ورأى جسر الحضارات الذي تغيّر تصميمه أكثر من مرة لتذهب المبالغ التي تنتج من تغيير التصميم إلى جيوب بعض المنتفعين من المسؤولين في المحافظة والقنصلية الفرنسية المسؤولة عن إقامة الجسر، وفي بغداد جسر الجمهورية، إنَّ المدينتين متشابهتان في كلِّ شيء حتى في هتافاتهما.

***

الفصل السابع

لم يكن "حميد" و"ساجد" و"رافد" ممن يقودون التظاهرات، أو من تنسيقياتها. فالمظاهرات بلا قيادة تذكر، وهذا ما أراده الشباب الثائر في كل المحافظات، وكان الأصدقاء الثلاثة، وغيرهم من الشباب الثائر، هم المبادرون في طرح بعض الأفكار التي تجد لها آذان صاغية عند المتظاهرين، وعمل أي شيء يصبُّ في إدامة التظاهر واستمراريته، كالتنظيف، وترتيب الخيم، وتوزيع الأكل، وجلب بعض كاسات "الروبة"*، أو القيمر العربي، أوالجبن العربي، وكل ذلك يصنعه نساء بستاني والد "حميد" و"ساجد"، وكذلك المشاركة في التظاهر أيضا.

وعندما كان "ساجد" في بغداد، وجد أن التظاهرات تسير بصورة سلسلة لا لبس فيها، مع العلم إنَّها بلا قائد، أو دليل، أو ربما لم يعرف من بين آلاف المتظاهرين من هو القائد، كما في الناصرية، كل يعمل أي شيء بلا أمر من أحد، وقد قبل المتظاهرون بهذا الأمر، وهذا سبب ديمومتها، ومطاولتها على البقاء، على الرغم مما تقابلهم به الحكومة من رصاص حي، وقنابل دخان قاتلة طيلة هذه الفترة الزمنية.

وعندما أنهى أربعة أيام بينهم في ساحة التحرير، وقد شاهد كل شيء، ودّع زملائه ممن كانوا طلابا معه في جامعة بغداد وهم في التظاهرات، أو ممن صاحبه في هذه الأيام الرائعة التي استفاد منها كثيرا وأعطته خبرة كثيرة في التظاهر وكيفية التعامل مع المستجدات اليومية، وقد شاركهم أيضا في الهتافات، وفي التنظيف، وفي صبغ الأرصفة، وحمل المصابين بالرصاص الحي وقنابل الدخان القاتلة.

ما آلمه كثيرا وتركه يبكي لفترة طويلة هو استشهاد أحد الأصدقاء الذين تعرف عليهم في هذه الأيام القليلة، لقد أصيب برأسه بقنبلة دخان، ولم تمهله قليلا فإستشهد.

شاهدَ كيف كانت حركة "التك تكات" إلى هذا المصاب، كانت تتحرك بانتظام وسرعة عالية، وضعوه في إحدى "التك تكات" فاستشاط غضبا صاحب "التك تك"، خريج آداب المستنصرية من سنتين، بحرقة وقال:

- في أيِّ لغة تنزل قنبلة الدخان على رؤوس المتظاهرين؟ لغة الدموع، أم لغة الفلفل الأحمر، أم لغة الأعصاب، أم لغة الموت؟ إنَّ الحل ليس في القتل، إنَّه موجود في تحقيق مطالب الشعب.

وعندما وجد الكل حزين، صعد "تك تكه" وأخذ الشهيد إلى مركز جمع الشهداء في الساحة لإرساله إلى الطب العدلي.

قال له "أحمد" زميله في الكلية:

- هذا طريقنا جميعا، هو من السابقين ونحن من اللاحقين، ولكن علينا أن ننظر للنصر وكأنه بين أيدينا، فالثورة تحتاج إلى المضحّين لتصل إلى النصر.

كانت لحية "أحمد" طويلة إلى حد ما وكأنه نسي حلاقتها، إلا أنَّها غير كثيفة الشعر، وسوداء، وقد منحت وجهه هيبة كبيرة استشعرها "ساجد"، فيما "أحمد" كان غافلا عنها.

كان "أحمد" كزملائه في ساحة التحرير يعي جيدا مصيره، أما الشهادة أو انتصار الثورة، وقد وضع هو وجماعته نصب أعينهم انتصار الثورة، وحتما أنَّها ستنتصر بزنود هؤلاء الثوار. كما قال "ساجد" لأخيه بالموبايل عندما اتصل به صباح هذا اليوم.

قال "أحمد":

- الثورة تختار رجالها.

ردَّ عليه "ساجد" وهو يمسح دمعة نزلت من عينيه التي فاضت على خديه لفقدان صديقه العامل في معمل الحديد والصلب في البصرة والمغلق منذ عام ٢٠٠٣ وقد جاء إلى ساحة التحرير ليشارك العراقيين ثورتهم ضد الظلم، والذي سقط ولم تمهله تلك القنبلة الدخانية حتى يصل إلى المستشفى.

أكد "ساجد" بقوله:

- نعم، هذا صحيح يا صديقي، النصر لنا جميعا.

كان الوقت ما قبل الظهر عندما حاول المتظاهرون التقدم باتجاه جسر الجمهورية لكي يعبروا إلى المنطقة الخضراء لا يصدهم شيء، لا يخافون أو يهابون من قوات أمن وأسلحة ومعدات، كان الهدف مرسوما أمامهم.

وصلت للمتظاهرين أكثر من قنبلة دخان قذف بها رجال الأمن وقوات الشغب من على جسر الجمهورية. وكانت القنابل هذه تقع على الأرض وهي تبعث دخانها في الجو فيحملها بعض المتظاهرين ويركض بها باتجاه الجسر ويعيد رميها على القوات المتحصنة خلف الصبات الكونكريتية، بسرعة أسرع من أي بندقية ترميها.

عاد الهدوء إلى الساحة، سكت الجميع، صَمَتَ كل شيء، وصمتت البنادق التي على جسر الجمهورية. حتى الأطفال المرافقين لأمهاتهم في الساحة والباكين خوفا مما يحدث، أوقفوا بكاءهم وصمتوا وهم ينقلون نظرهم بين وجوه أمهاتهم وبين ما يحدث في الساحة. أما المسنين فقد أوقفوا سعالهم، للحظة خالها من في الساحة أنَّها تمتد وقتا طويلا، وبدون مقدمات هبَّ الجميع بصوت واحد وهم يهتفون "بالروح بالدم نفديك يا عراق"، فانفجر صوت الهتاف في كل جهات ساحة التحرير مرة واحدة، وطارت بعض الحمامات التي كانت في أعشاشها خلف بعض أجزاء نصب الحرية، في الفضاء وهي ترفرف أجنحتها فرحا بكلمات الهتاف، وحتما فتحت نافورات بغداد كافة، ناثرة مياهها إلى كل الجهات.

قال "ساجد" إلى زميله في الكلية قبل سنوات "أحمد":

- أحمد، لقد وجد هذا الجيل نفسه، أنا أسميه جيل عراق الذي وعى حاله، الجيل الذي وعى إلى نفسه فوجد الأحزاب الناهبة، والطائفية، والمحاصصة، والسرقة، والنهب، هذا جيل العاطلين عن العمل، والقابضين على جمر العوز والحاجة إلى أن يحصلوا على بعض المال ليعودوا إلى عوائلهم و"علاگة"* مملوءة بما يسد الرمق لا أكثر ولا أقل.

ردَّ "أحمد" قائلا:

- انظر إلى فوق المطعم التركي.

رفع "ساجد" عينيه إلى أعلى المطعم، كانت الشمس في أعلاه بالضبط وهي خلف المتظاهرين فبدا المتظاهرون الذين على سطحه عبارة عن أشباح سوداء.

تابع "أحمد" كلامه:

- هكذا نريدهم دائما أن يبقوا للحكومة، ولتلك الأحزاب والكتل، كالأشباح تهزُّ مضجعهم ليل نهار.

قطع حديثه سعاله بشدة بسبب من بعض دخان قنبلة رميت على الساحة، ثم قال:

- لقد وعى هذا الجيل، وعرف عدوه اللدود، وكمن ولد من جديد، فإنَّه لا يخاف، وقال قولته العظيمة "نازل آخذ حقي" وحتما كان يعرف من أين يأخذ حقه. وطالما أنهم غير ملزمين بتفسيرها بل بتحقيقها، فدع هذا الجيل يحلم بغدٍ أفضل، فأحلامهم حقيقية مثل فلق الصبح.

قال "ساجد" بعد أن سعل مرة أو مرتين:

- العراق في كل يوم ينزف دما منذ السومريين إلى الآن، إن كان بسبب الحروب أو بسبب الأوبئة التي تجتاح العراق، وحتى الغرق في أنهاره العظيمة، وكانت الشرور تأتينا من الشرق إن كان ذلك في وقت السومريين أو كانت في هذا الوقت.

قال "أحمد" متابع قول "ساجد":

- أخذت منا أنهارنا الكثير، مثلما كانت تعطينا الكثير، المئات من أبنائنا غرقا، خذ نهر دجلة مثلا، فقد كان يأخذ من أهل بغداد والمحافظات التي تقع عليه سنويا الكثير من شبابه وكأنه يأخذ ثمن ثقل المراكب التي تسير فيه وعلى مائه، وكان ثمنه هذا باهضا جدا. ونحن العراقيون قد تعودنا على الخسارة دائما، والخسارة كثمن ندفعه للحفاظ على الوطن، وهي أروع خسارة نقدمها في حياتنا ليبقى ذلك الوطن لي ولأطفالي وأطفالهم. حتى الطيور تدافع عن أعشاشها، وعلينا أن نضعه في أحداق عيوننا، هذا جيل لم يولد وفي فمه ملعقة من ذهب، بل وجد أنَّ فمه، في الكثير من الأحيان، خاليا من أية لقمة، هذا جيل شعر أنَّه قد فقد كرامته وهو يستلم القليل من "الفلوس" بين شهر وآخر كمعونة للعاطلين، حتى أصبح العراق بلد العاطلين، هذا الجيل الذي يموت مريضه ولا يجد سريرا يرقد عليه في مستشفى حكومي، ودواء له، هذا جيل،.

فسارع "ساجد" وحضن صديقة "أحمد" بقوة وربت على ظهره عدة مرات، وقال من بين دموع عينيه الجارية:

- هذه هي الوطنية الحقة التي غيبتها أحزاب السلطة في عقول العراقيين خلال ست عشرة سنة الماضية، الوطنية التي تعيش في خلايا أجسامنا، تنمو معها، تشرب ما تشربه من حليب أثداء أمهاتنا الطيبة.

مرت بهم بعض الفتيات وهن ينظفن ساحة التحرير، أشار "ساجد" إلى واحدة منهن وسأل:

- أتعرف تلك الفتاة؟

نظر إليها، لم تتوضح معالم وجهها الملفوف بيشماغ عراقي، أجاب:

- آسف لم أعرفها.

صاح بها "ساجد":

- ست سناء من فضلك؟

عندما تقدمت نحوهم، وحلّت الياشماغ عن وجهها، عرفها، إنَّها زميلتهم "سناء" في الكلية.

تحركت جذور ذاكرته فأعادت له ذكريات الكلية قبل سنوات، وبعد السلام، سألها "أحمد" عن آخر نكتة سمعتها.

ضحكت بصوت عالٍ كما تضحك لنكته في الكلية، وأصغيا الاثنان لها باهتمام زائد:

- قرأت وأنا قادمة لأنظّف الساحة لافتة تخاطب الفاسدين تقول: "اهربوا إلى أربيل فإنَّ فيها ملكا يأوي الفاسدين".

ضحكوا جميعا أكثر مما يجب على ما كُتب في اللافتة من عبارة فيها معان كثيرة.

قال "أحمد" بنبرة تحمل من القول الجدي أكثر من القول الفكاهي:

- نحن نحتاج إلى عالم اجتماع وآخر عالم نفس لدراسة ما أفرزته هذه الثورة من نكات وطرائف كثيرة، وهي كثيرة، تنطلق من الواقع العراقي الذي نعيشه.

- نعم. قالت "سناء" مؤيدة ما جاء به "أحمد".

- العراقيون شعب نابض بالحياة وهو كالشعوب الحية يخرج من مأساته سالما مما يجعل حياته المعاشة أكثر حيوية، وكانت الطرائف والنكات خير وسيلة في خروجه سالما من أي مأساة تقع له.

بهذا القول ختم "ساجد" الحديث بينهم.

***

الفصل الثامن

حلقت بعض الزرازير حول تمثال الحبوبي المصبوغ باللون الذهبي والمنتصب بشموخ في الساحة المسماة باسمه منذ حوالي خمسين عاما، فيما كانت شجيرات الآس الخضراء المحيطة بحديقته كأنَّها تحرسه، أو أن التمثال بوقفته الشامخة وهو يرفع رأسه بعمامته التي رافقته وهو يقاتل الانكليز في الشعيبة عند دخولهم العراق، هو الذي يحرسها، فتتعالى زقزقاتها وهي تطير ليس بعيدا عنه، تصعد للأعلى وتهبط للأسفل لامّة أجنحتها إلى جسمها وكأنَّها تنقضّ على فريستها إلا أنَّ الفريسة هو لعبها مع أقرانها.

كان فجر هذا اليوم هو فجر جديد بزغ بعد ليلة نام فيها "ساجد" بعمق في الساعة الثانية عشرة على الرغم مما كان يتردد من حوله من هتافات لم تسكت حتى سقطت عيناه في وهدة النوم العميق ولم ينهض منه حتى فجر هذا اليوم.

خرج من الخيمة التي نصبها بعض الناس الخيرين الذين تبرعوا لأبنائهم المتظاهرين في هدوء بإتجاه هذا الفجر الباكر وهو ممسك بالصابونة والخاولي الأزرق المخطط بلون سمائي فاتح، والناس تتحرك في الساحة كأنَّها توقف الأرض من أن تميل إلى جهة ما بعد وقوفها على قرن الثور الذي يشعر الآن بالتعب والإجهاد من ثقلها*.

ضحك كثيرا في سره من هذه الخرافة التي سمعها مرة من رجل دين على منبر المأتم الذي يقيمه الحاج سلمان في البستان المجاور لبستانهم تحت نخيله في ليلة عاشورائية حزينة.

هزَّ رأسه عدة مرات وكأنَّه يريد أن يتخلص من هذه الخرافة التي أضحكته كثيرا في هذه الساعة وفي الساعة التي رواها المعمم وهو يجلس على المنبر، فشعر "ساجد" بنيران الغضب تتأجج في عروقه فصاح به من مكانه بلهجة حادة وصلته كإطلاقة بندقية:

- شيخنا من قال هذه الخرافة؟ أتريد أن تعلّم الحاضرين الخرافات على إنَّها دين؟

لم يقبل بعض الحضور بما قاله "ساجد"، فيما انبرى أكثر من صوت شاب ومتعلم لسؤال الشيخ نفسه عما رواه، توقف الشيخ عن كلامه ونزل من على المنبر الذي غطي بقطعة قماش سوداء، وخرج صامتا ولم يعد ثانية.

قال أحد المزارعين الشباب:

- لو تركته يكمّل حديثه لكان أفضل. كل الحاضرين يعرفون إنَّها قصة أو خرافة.

ردَّ عليه "ساجد" من الأعماق وهو يريد أن يسمع كل الحضور بما يفكر فيه:

- ليس كل الحضور يعرف ذلك، هناك الكثير من الحضور يصدقون ما يقوله الشيخ ويقبلون به على إنَّه من المسلّمات التي لا يأتيها الباطل من كل الجهات وكان علينا نحن المتعلمين أن نوقف تلك "السكّينة في خاصرتنا"* لمثل هؤلاء الأميين والخرافيين.

صاح الحاج عباس بعد أن التفت إلى "ساجد":

- هذا رجل دين فكيف ترده؟

ردَّ "ساجد" بصوت عال:

- لا ليس برجل دين إنَّه رجل معمم فقط، وليس الدين نفسه، والدين شيء وهؤلاء شيء آخر، إنَّه يخرّف في المجلس وعلينا جميعا أن نسكته.

لاذ الجميع بالصمت، وبدأ الحضور يغادرون صامتين. كان المجلس مترعا بالصمت وكأن الجالسين فوق رؤوسهم الطير. نهض والده من مجلسه واتجه إلى حيث يجلس وخاطبه متسائلا:

- إنِّي عائد إلى البيت، أتذهب معي؟ وخرجا معا.

اصطدم "ساجد" بشاب يشرب الشاي عرف فيه إنه أحد معارفه الذين غادروا منطقة "السديناوية"* المكتظة بالنخيل وسكنوا المدينة، وليس من الصعب التعرف عليه مباشرة بعد أن أمعن النظر فيه وبعد أن باعدت السنوات بينهم منذ قبل أن يذهب إلى بغداد لدراسته الجامعية، سلّم عليه بشدة. كان الشاب يقف قرب "تك تك" بيضاء اللون، فسأله عن أهله، وأحواله، ودراسته، فأخبره الشاب بكل شيء عنه و"ساجد" ينصت إليه باهتمام شديد.

قصَّ الشاب عليه حكايته مع "التك تك" الأولى في الناصرية. قال الشاب خريج المعهد التقني في الناصرية:

- لقد بعت "الستوتة" التي كنت أضع عليها خزان ماء "R.O" وأدور في الشوارع لأبيع "دبّات"* الماء، وبعت كذلك حُلي زوجتي الذهبية وسافرت إلى بغداد واشتريت هذه "التك تك" لتكون عونا للمتظاهرين في نقل كل شيء، حتى المصابين والجرحى، وستدخل "تك تكات" كثيرة بعد يوم أو يومين لشباب كثيرين غيري فعلوا ما فعلت أنا.

شكره"ساجد" على ما فعله، وربت على كتفه، وعانقه بشدة، وودعه بعد أن طلب منه أن يلتقوا مرة أخرى.

تركه وذهب إلى خزان الماء وغسل وجهه ويديه وعاد إلى الخيمة فقد شعر بالتعب في حنجرته وأن صوته ليس كما كان، قال لنفسه: ربما بسبب صوتي العالي ليلة البارحة لفوز العراق على ايران في لعبة كرة القدم.

تذكر ليلة البارحة والشاشة الكبيرة التي نصبت قرب حديقة تمثال الحبوبي وهي تعرض لعبة كرة القدم بين العراق وايران وفوز العراق على ايران، كانوا أبطالا بحق، لقد أفرحوا العراقيين بأهدافهم التي جاءت كرد على القنابل الدخانية.

شعر بوجود "بحة" في صوته وأحس بشيء يعيق بلع ريقه، وكان ليلة البارحة قد علا صوته أكثر من أصوات المتظاهرين الآخرين عندما سجل أحد لاعبي المنتخب العراقي الهدف الثاني في مرمى ايران.

توزعت الشاشات على طوابق المطعم الذي قاري لكي لا يتركه الذين في طوابقه من المتظاهرين فيسيطر عليه رجال الأمن، وعند الفوز ارتجت أصواتهم مرددة هتاف "بالروح بالدم نفديك يا عراق" فيجيبهم المتظاهرون في ساحة الحبوبي الهتاف ذاته، وكان "ساجد" و"رافد" مع المتظاهرين في ساحة الحبوبي، أما "حميد" فقد وجد صديقا له في المطعم الذي قاري وظل هناك فترة نقل المباراة.

شرب بعضا من "ماء اللبلبي"* الحار وسلك ريقه أكثر من مرة. جاء ببعض الأدوية من المفرزة الطبية المرابطة في ساحة الحبوبي بعد أن فحصه أحد الأطباء وأخبره بالتهاب أوتاره الصوتية بسبب الصوت العالي.

إنَّ التي سلمته الدواء الذي وصفه الطبيب له هي الفتاة نفسها التي سألت "رافد" عن كيفية موت الشباب بقنبلة الدخان، وقد ارتدت صدرية بيضاء، فسلم عليها وشكرها على الدواء.

عاد إلى الخيمة فرأى أحد المتظاهرين وبيده صينية فيها صحن مليء بالقيمر وصحن آخر فيه عسل واستكانات من الشاي وتتدلى من يده "علاگة" فيها بعض الصمون لأصدقائه الموجودين في الخيمة، وقبل أن يصل لهم سألهم باسما وبتهكم:

- أترون أن لا "مخبول"* في الناصرية منذ شهر، أسألكم لماذا؟

قال أحد أصدقائه باسما:

- دعنا نفطر أولا وبعدها نجيبك.

وأنزل الشاب الصينية ووضعها في وسط مجلس جماعته الشباب من المتظاهرين.

رنَّ جهاز موبايل "ساجد" بوصول رسالة تخبره أن أخيه سيعود بعد أيام إلى العراق. اتصل بوالده وأخبره بذلك.

***

الفصل التاسع

تذكر "ساجد" وهو يشاهد ما يبثه التلفزيون من مشاهد عن المعركة الجارية بين المتظاهرين والقوات الأمنية في ساحة الخلاني. تذكر بغداد وسفرته لها.

كانت المعركة شديدة الوقع على المتظاهرين وما ترافقهم من "تك تكات"، فقد امتلأت المنطقة بالأحجار الصغيرة والطابوق الذي كان يستعمله متظاهرو ساحة الخلاني لرميه على أفراد قوى الأمن فيما هم يقابلوهم بالقنابل الدخانية والرصاص الحي.

سقط أكثر من شاب جراء الدخان الذي توصله القنابل المرمية على المتظاهرين العزّل وهم من فقراء مدينة الثورة، ولا تتجاوز أعمار بعضهم عن الخامسة والعشرين.

وبغتة رأى أحد المتظاهرين يسقط على الأرض والدماء تنزف من رأسه الذي سقطت عليه قنبلة دخان قذفت بشكل أفقي.

سارعت مجموعة من "التك تكات" لمكان سقوطه مع بعض الشباب، حملوا المصاب بين أيديهم إلا أنَّه فارق الحياة وهو يوضع في "التك تك".

كان وجهه الذي توضح جيدا على شاشة التلفزيون وهو يحتضر بين أيدي أصحابه الشباب، ونظرته الحقيقية إلى من حوله، تعكس إرادته القوية في الحياة، لم يكن في نظرته أي كذب، أو زيف، أو دجل في حدوث الفجيعة التي حلت به وفي البلد. تساءل "ساجد" وهو يرى هذا المشهد: بماذا كان يحلم ساعة أن فاضت روحه؟

لم يتفوه "ساجد" بكلمة حتى، كان باله مشغولا وقتها بهذه النظرة التي فارق الشاب روحه وهو ينظر إلى ما كان أمامه، سكت "ساجد" لأنَّه لم يكن يعرف ماذا كان يرى وقت احتضاره؟

كان يشاركهم في مشاهدة ما يحدث أمامهم في ساحة الخلاني ويعرضها التلفزيون، مجموعة من الشباب المتظاهرين العزّل من أي سلاح ناري أو جارح.

صمت الحضور وهم يشاهدون هذا الموت المجاني لشباب بسطاء كل ما فعلوه انهم يطالبون بحقهم الضائع. قال "ساجد" وكأنه يخاطب صديقه "رافد":

- هل رأيتم ما يشير الى مؤامرة؟

ردَّ "رافد" بوجه حزين بهزُّ رأسه وكأنه ينفي وجود أي مؤامرة.

وعلى حين غره نهض شاب يافع وهتف بأعلى صوته "بالروح بالدم نفديك يا عراق" وبعد ترديد الحضور للهتاف عدة مرات وهم يهزجون، لعن هذه القوات التي تستخدم الأسلحة الحيّة، والقنابل الدخانية المحرمة دوليا.

نهض "حميد" وهو يمسح الدموع التي نزلت على خديه وهو يرى في التلفزيون كيف مات هذا الشاب الذي كان وجماعته من المتظاهرين يرمون القوات الأمنية بالحجارة ولا سلاح قاتل عندهم.

نهض من بعده "ساجد" و"رافد" وساروا الثلاثة في شارع الحبوبي وداروا حول حديقة التمثال الذي ما زال شامخا بوقفته كالمتظاهرين. مروا على بعض الحضور من الكهول وهم يجلسون على الكراسي التي صفت لهم أمام أحد الخيم وهم يتحدثون فيما بينهم بشأن التظاهر.

كان الصمت والحزن هو الذي يخيّم على وجوه الأصدقاء الثلاثة، لم يتفوه أحد منهم بكلمة ولا حرف واحد، ولا فكّ شدقيه.

كانت أحداث ساحة الخلاني تمر أمام ذاكرة "ساجد" كفيلم سينمائي ملون، حتى إنَّ الأمور التبست عليه، تساءل مع نفسه: هل أنا في ساحة الخلاني أم في ساحة الحبوبي؟ ولم يفق على تخيلاته إلا بعد أن شده "حميد" من يده وهو ينبهه إلى صديقهم "سلام" الذي مدَّ يده ليسلم عليه.

- أهلا سلام.

- أين كنت؟ سأله "سلام".

ردَّ مذهولا:

- كنت سارحا في أفكاري التي أخذتني إلى ساحات الاعتصام ببغداد.

سأله "سلام":

- وماذا وجدت فيها غير الأخبار التي تصل إلينا من الأصدقاء بالموبايل، وما تبثه القنوات التلفزيونية من مشاهد لهم؟

- رأيت الكثير، رأيت الدم يجري بلا توقف، ورأيت الشباب يتساقطون بالرصاص الحي بلا عدد، ورأيت اللافتة التي كتب عليها جملة "نزلت آخذ حقي" قد ديست ببساطيل قوى الأمن وهو يقتلون حاملها، رأيت كل شيء، ورأيت مقابل ذلك الإصرار والعزيمة، والقبض على جمر الثورة المتأجج بيد من حديد.

- وهل خرجت من ذاكرتك التي تخزن هذه الأمور؟

أخرج "ساجد" جهاز موبايله وأراه صورة وصلته صباح هذا اليوم. قال:

- وكيف تريدني أن أنسى صورة هذا الطفل الشهيد؟

كانت الصورة لطفل، لعله في الخامسة أو السادسة، وقد فتح عينيه، ودم يسيل من رأسه إلى الأرض وقد رسم ما يشبه الوردة على الأرض. الطفل مستلقٍ على الأرض، وبيده علم عراقي وقد اصطبغ بدمه المسفوح الذي جرى من رأسه بسبب قنبلة دخان وقعت عليه.

كانت الصورة مؤثرة لـ "حميد" و"رافد" و"سلام". وفي هذه اللحظة أخذ الموبايل من يد "حميد" شخص رابع، لا يعرفونه، وقد علت وجهه لحية قصيرة وهو يسير في الشارع بمحاذاتهم.

نظر إلى الصورة وصاح: يا إلهي، هذا شيء مؤثر، اللعنة على الحكومة ومن سيّدها على رقاب العراقيين.

اليوم سقطت الحكومة وسقط كل شيء، لقد تخلوا حتى عن الإنسانية بقتلهم للأطفال. قال الرجل الغريب ذلك وأعاد الموبايل لـ"ساجد" وسلم على الأصدقاء الأربعة وقبل أن يغادرهم وهو يعرج من ساقه الملفوفة بشاش طبي جديد لم يمض عليه وقت طويل، قال:

- هل سمعتم بما قاله وزير الدفاع؟

أخذ كل من الأصدقاء الأربعة ينظر بوجه الآخر، تابع الشخص الرابع قوله:

- قال الوزير لا منتسبي وزارة الدفاع ولا منتسبي وزارة الداخلية هم المسؤولون عن قتل المتظاهرين، المسؤول هو "طرف ثالث".

أدهش هذا القول الأصدقاء الأربعة، فيما ودعهم الشخص الرابع وذهب.

***

الفصل العاشر

لم يكن الآذان في فجر ذلك اليوم التشريني البارد هو الذي دفع "ساجد" للاستيقاظ مبكرا، ولا كانت لفحات البرد القاسية التي تدخل الخيمة من فجوات عديدة فيها، ولا أي كابوسٍ رآه في نومه قد أقلق نومه، إن الذي دفعه للاستيقاظ بعد أن ظل ساهرا حتى الساعة الثانية من صباح ذلك اليوم ولم يكن قد نام نوما حقيقيا وما أن لامست جفونه حافة النوم حتى أيقضه الرنين المتواصل لموبايله.

كان جسمه التعب والخدران من النعاس يستجدي النوم، فيما كان ذهنه يتشبث برنين الموبايل.

استوى على فراشه الذي هو عبارة عن سجادة بنصف عمر كالحة اللون، وبطانية صوفية ثقيلة، ووسادة فرش عليها خاولي. فرك عينه التي رأت ضوء الخيمة الأصفر الخابي كضوء فانوس قديم، أخرج موبايله من تحت الوسادة والذي مازال يرن حتى أنَّه خشي أن يوقظ الشباب من نومهم في الخيمة تحت الأغطية التي تمنح لهم الدفء، فسارع في الضغط على زر الفتح ليوقف صوت الرنين المتواصل.

- من يتصل بهذا الوقت؟

قال ذلك وهو يفرك عينيه ليزيل عنهما ما علق فيهما من صور ذلك الحلم المزعج.

كان المتصل أخوه "كريم" من بغداد يخبره بالوصول إليها، وهو الآن في منتصف ساحة التحرير بالضبط.

طرفت جفونه، وإرتجف صوته قليلا، وقد تمالكته عاطفة كادت أن تنسيه اسمه، ثم انطلقت أساريره فرحة بمقدمه، وفي الوقت نفسه انتابته مشاعر الحزن، لأنَّه عاد للمشاكل في العراق.

فكر مع نفسه بعد أن أغلق موبايله: ألا يكفى أن عائلته، وأنا، ما نزال في العراق؟

وقبل أن يعود إلى النوم حدث نفسه قائلا:

- إنَّ جذوة نفسه ما زالت متقدة بالثورة التي قَدِم لها من بعيد.

عاد إلى النوم من جديد يبحث عن راحة لعينيه التي أتعبهما السهر لعدة ليالي وأرجأ نقل خبر وصول "كريم" لعائلته إلى الصباح، فقد كان في هذا الوقت والده فقط هو المستيقظ الوحيد في البيت لأداء الصلاة، وحتما أنَّه سيوقظ الجميع ليسمعهم هذا الخبر وهذا لا يريده لعائلته.

بعد دقائق، وقد وجد النوم قد جفى عينيه، أخرج الموبايل مرة أخرى وبدأ يقرأ ما ينشر فيه من أخبار وبوستات. قرأ خبر قيام التظاهرات في مدن عديدة من إيران فأفرحه ذلك، عندها سارع بإيقاظ صديقه "حميد" من نومه، وأخبره أن الثورة قد قامت في المدن الإيرانية، وثماني عشرة محافظة الآن ثائرة على نظام الملالي، وقد سقط قتلى وجرحى في التظاهرات المستمرة.

جلس "حميد" في فراشه بعد أن غطى جسمه بالبطانية وراح يقرأ الأخبار في موبايله.

- حرق مصرف.

قال "حميد" ذلك وكأنَّه يكلم أحدا. بادره "رافد" الذي دخل الخيمة للتو:

- وحرقوا صورة المرشد الأعلى.

سلم عليهم وجلس بينهم وسحب طرف بطانية "حميد" وغطى جسمه به.

- إذن قد زال الخوف منهم.

ردَّ "رافد" بنبرة فيها بحة من نهض من الفراش توا وكان يعالجها بالسعال:

- لقد صدّروا لنا ثورتهم، فكانت ثورة مذهبية، وفتحت الأبواب أمام العراقيين ليقتل بعضهم البعض، وصدّرنا لهم ثورتنا الآن، لينظروا أي الثورتين هي الثورة الحقيقية.

- ما هي أخبار الثورة في ذي قار؟ سأل "ساجد" صديقه "رافد".

قال"رافد":

- الثورة تمتد في الأقضية والنواحي، فقد ثار أهالي قضاء الرفاعي بوجه سلطة القضاء، وقاموا بحرق بناية مجلس القضاء، وهرب جميع أعضاء المجلس.

- وفي الشطرة أيضا أحرقوا بعض منازل المسؤولين.

- وفي الغراف، وسيد دخيل، والجبايش، والبطحاء.

نظر "حميد" الى "رافد":

- إنَّ حرق منازل المسؤولين وبعض الدوائر لم يقم المتظاهرون به بل هي من أفعال شباب وجد نفسه فقيرا لا يملك مصرف جيب ووجد هؤلاء المسؤولين الذين كانوا قبل عام ٢٠٠٣ لا يملكون شيئا وإذا بين ليلة وضحاها قد أصبحوا أغنياء وأصحاب نفوذ.

أكد "رافد" قائلا:

- نعم إنه الصراع الأزلي بين الفقراء وأصحاب المال السحت، وقد قال أبو ذر الغفاري "عجبت لمن لا يجد القوت في بيته، ألا يخرج على الناس شاهرا سيفه"، وهذا ما دعا هؤلاء إلى الحرق، فهم كمن يقتل فقره بحرق أشياء خاصة للذي أصبح غنيا بعد عام ٢٠٠٣، وهم يعرفون من أين أتت أموال هؤلاء.

هذا ما دار من حديث بين الشباب الجالسين في أحد الخيام المنصوبة في ساحة الحبوبي في فجر يوم كان فيها البرد شديدا، وصامتا.

نهض الثلاثة وهم يغطون أجسامهم بالبطانيات وخرجوا من الخيمة وساروا في شارع الحبوبي بإتجاه مديرية التربية، والصباح ما زال في ساعاته الأولى.

قال "رافد":

- البصرة ثائرة ولها ساحتها التي تتظاهر فيها وهي ساحة أم البروم، وكربلاء لها ساحة التربية، والنجف لها ساحة للتظاهر.

قال "حميد" متهكما:

- الحكومة لا شاغل لها سوى الخطف ورمي العتاد الحي والقنابل الدخانية.

قال "رافد" لزميليه:

- لنستمع إلى الأخبار في التلفزيون.

جلسوا في أحد المقاهي التي أقيمت على عجل وهي تقدم الشاي المجاني ومشاهدة التلفزيون.

كانت احدي القنوات التلفزيونية تبث عاجلا عن احتلال المتظاهرين في البصرة لميناء أم قصر وقد سدوا الطرق الداخلة والخارجة منه سوى سيارات البضائع الخاصة بالمواد الغذائية والدواء.

ضرب كفا بكف كالذي يصفق بيديه وأكد"حميد" بصوت عالٍ، قائلا:

- هذا هو الصحيح يا ثوار البصرة.

نهض "رافد" واقترب من صاحب الشاي وحمل استكانات الشاي منه، استكان لـ "ساجد" والآخر لـ "حميد" وأخذ هو الاستكان الثالث:

- هذا عمل ثوري أمام الفساد الذي يملأ الموانئ.

قال "ساجد" لصاحبيه وهو يشرب الشاي:

- إنَّ مشكلتنا الحقيقية هي مشكلة الوطن بأسره.

حرك أصدقائه رؤوسهم علامة الموافقة، وتابعوا الأخبار المعروضة على الشريط الأحمر أسفل الصورة المعروضة في التلفزيون:

((المتظاهرون في البصرة يغلقون حقل نفط مجنون لتوفير فرص عمل للخريجين من أهالي البصرة)).

- تكاثر الخريجون بكل الاختصاصات والشركات تجلب عمالة معها.

- لان المستفيد هو من فرض هذه الشركات وقبض عمولته.

قرأوا في الشريط السفلي خبرا عن التظاهرات في لبنان، وخروج الأهالي إلى الشارع رافضين للمحاصصة والفساد والطائفية.

مرَّت في شارع الحبوبي تظاهرة قادمة من "البهو"* يقودها مجموعة من الرجال الذي يرتدون الملابس العربية ومن وراءهم رجال وشباب قد جاؤوا من عشيرة تحادد مدينة الناصرية من الشمال وهي تردد "هوسة"* تقول:

- "ضم عدساتك* لهل ايران، احنه الصبينه أمفطح"*

هزت هذه "الهوسة" أعماق الأصدقاء الثلاثة، فإمتلأوا حماسا، فقاموا من مكانهم وأخذوا "يهوّسون" مع التظاهرة العشائرية التي مرت من أمامهم وهم في مكانهم واقفين.

من خلف تظاهرتهم مرت أكثر من سيارة "بيك آب"* تحمل قدور كبيرة فيها مرق ورز ولحم "مفطّح" كوجبة غداء لمتظاهري ساحة الحبوبي و"المطعم الذي قاري"، والخير كثير* كما قال الطباخ وهو يلف كرشه الكبير بياشماغ ذي خيوط سوداء، وكان واقفا في حوض سيارة "البيك آب" مع القدور.

في المساء ضجت الناصرية، بساحاتها، ومطاعمها، وشوارعها، وأزقتها، ونهرها، بهتاف واحد حفظه العراقيون عن ظهر قلب في صدورهم، هو: "بالروح بالدم نفديك يا عراق"، وتصاعد صوت العيارات النارية في الجو الذي شاركت فيه قوى الأمن والجيش، وكانت "الصعاديات"* قد لونت سماء الناصرية احتفالا بمناسبة فوز المنتخب العراقي على المنتخب القطري بكرة القدم.

قام رجل من مكانه من أمام جهاز التلفزيون وقال بصوت واثق النبرات:

- فاز العراقيون على ايران وقطر.

صفق بيديه وسار متجها نحو الساحة.

***

الجزء الثاني

بغداد – ذي قار

الفصل الأول

لفه ضباب الذكريات، وتداخلت في ذهنه النشيط، إن كانت قد حدثت قبل أن يغادر بلده لاجئا في استراليا، من تدخل الأحزاب في السياسة بعد عام الاحتلال وقد زاد هذا التدخل حتى لم يعد محتملا عند أي شخص شريف، أو ذكريات قديمة بقدم حبه لـ "حميدة"، منذ أن دخلا سوية الصف الأول الابتدائي، والى آخر مرة التقى بها تحت النخلة التي خوص سعفها كثيف بكثافة شعرها الطويل والأسود كالليل.

غرق بأفكاره التي لا يمكن تسميتها إنها أفكار خيالية، بقدر ما هي أفكار واقعية حدثت في الواقع الذي مرّ عليه وعلى حبيبته "حميدة".

سنة كاملة، أو تزيد، والذكريات هذه لا تغادر ذاكرته الحية والنشطة دائما، تأكل وتشرب معه مثل أي كائن حي، وخياله النشط الملتهب بما هو رائع وجميل من الخيالات والتصورات التي تتركه يعيش في جنة خضراء هو وهي، لقد كان يشعر بها وهي تدخل مع كل شهقة يتنفسها فتبقى معلقة بكيانه، و"تنداف"* في دمه، لتنام في قلبه فينبض بها دائما ولا تفارقه لحظة واحدة.

خلال هذه الفترة كان في الكثير من الأحيان يعيش في ذهن متصلب، ومزاج حاد، وكثيرا ما كان ينقلب ذاك المزاج كفصل الخريف في العراق، ويتعكّر دائما، وهذا الأمر، كما أعترف مرة لصديقه "حسن"، الذي يبتعد عنه الآن مسافة كبيرة، إذ بقي في استراليا، كان بسبب يعود إلى الابتعاد عمن يحب، "حميدة".

لم يلتق بها كما التقى بها الآن في خياله عندما وصل إلى بغداد، رغم إنها لم تغب لحظة واحدة عن هذا الخيال المشبع بها طيلة وجوده في استراليا. كانت هي شغله الشاغل على الرغم مما يشغل باله من أمور التظاهرات والمتظاهرين الذين يعدّهم أخوة له مثل "ساجد"، وأصدقاء له مثل "حميد". لقد أحبها منذ أن انتبه إليها في الصف الأول الابتدائي عندما سجلا في يوم واحد، وفي ساعة واحدة، وفي المدرسة الوحيدة في منطقتهم الزراعية، ودخلا صفا واحدا، وهو الصف الوحيد للتلاميذ الجدد.

كان بستان والدها يحادد بستان والده من الشرق. وكان البستانان بمساحة واحدة، وبعدد نخيل واحد، ولكل بستان "ماطور" لسحب الماء من نهر الفرات ينفرد به، إلا أنهما متشابهان. وكانت هناك أرض سبخة بين البستانين بعرض خمسة أمتار لم تزرع بأي شيء، فيها نخلة وحيدة وارفة السعفات، وخوص سعفها الأخضر اللين الطويل كثيف جدا.

في جامعة البصرة، وفي قسم اللغة العربية، وفي شعبة واحدة جلس الاثنان، كرسي قرب كرسي، وفي خارج الصف كانا لا يفترقان، إن كان ذلك في النادي أو في المكتبة أو في أي مكان يتواجدان فيه، سوى الليل الذي يحتم عليهما الافتراق، هو في قسم داخلي وهي في قسم آخر يبعد قليلا عن قسمه.

إنها حريتهما فلا يجب أن تضيع منهما، يجب استغلالها الى أقصى حد، هذه الحرية التي فسحت لهما المجال في أن يكلما بعضهما دون أن يراهما والد "حميدة". قالت لها أمها أحذري أن يراك والدك تكلمين "كريم"، أو أي أحد، وظلت معها هذه العبارة سنوات حتى افتقدتها في البصرة.

كانا يستطيعان حشو الهواء الفاصل بين فمها وفمه بكل كلمات الحب والغرام لبعض الوقت، كما تحشو أوراق "السبيناغ"* بحشو "الدولمة"*، ثم يأتي الكلام الآخر.

مرة كانا يسيران جنبا إلى جنب وهم صامتين بعكس ضجيج الشارع الصاخب بالحركة والكلام، وكان الشارع المحاذي لنهر شط العرب في وقت العصر مكتظا بالمتنزهين، رغم أن الحرّ كان يعيق التنفس، والرطوبة الزائدة تنزل على الجسم ثقيلة كالرصاص فتتركه دبقا. وكانت هي ترتدي العباءة وتلف شعرها بوشاح مزين برسوم الورد، وبقميص أزرق بأكمام قصيرة، وتنورة زرقاء قصيرة، فيما كان "كريم" يرتدي بنطلون أسود وقميص أزرق بنصف كُم. التفت إليها وبنظرة من عينيه الزرقاوين التي تحبهما وتتيه فيهما كأنَّها تتيه في بحر لا حدود له، سمعته يقول لها:

- رغم الحر، والرطوبة العالية، فالزحام كثيف.

قالت وهي ناظرة اليه للمرة الأولى منذ توقفهما:

- لنجلس قليلا هنا.

وأشارت إلى مصطبة قرب أحد الرجال الذي يبيع الكرزات في عربة صغيرة بثلاث عجلات.

تابعت القول:

- اشتري لنا بعض الكرزات.

فحصا مكان جلوسهما من بقايا رمل خفيف و ذرات تراب تعلق بملابسهما بعد العاصفة الرملية التي هبت صباح ذلك اليوم، وتبادلا النظرات وابتسما، ثم جلسا سوية، أحدهم قرب الآخر، جسمه يحتك بجسمها، وجسمها يحتك بجسمه. فتح كيس الكرزات فمدت يدها داخله وأخرجت حبة من الكرزات وراحت تلوكها وعلى شفتيها ضحكة صغيرة وفاتنة. قالت:

- هذه آخر مرة نجلس فيها سوية في شارع عام نتشارك كيس الكرزات.

- أحقا؟... لماذا؟

ومضت عينيها غضبا:

- ألا تعرف، أم إنك تتغافل؟

فيما كان أحد مراكب شط العرب تغادر مكانه، مسك بيدها الدافئة، والتي لا يكون لها ثقل تلك اللحظة، تركت يدها في يده، ضحك وقال:

- نعم أتغافل.

- لماذا؟

- لأنني لا أريد أن نترك البصرة ونذهب إلى مدينتا وهناك لا أستطيع أن أراك إلا نادرا.

ردت قائلة:

- من قال ذلك؟

- هذا ديدن والدك معي، ولا أعرف لماذا؟

- صدقني إنَّ والدي يحبك جدا، وهو يقول عنك إنَّك رجل شهم يمكن الاعتماد عليه، إلا أنَّك تعرف بأنَّه لا يعترف بأي علاقة حب.

- ولا أبي. قال لها ببرودة وهو يكرّز بعض الفستق.

- ليس هذا هو المهم، فأنت تعرف إنَّ أبي سيوافق مباشرة على زواجي منك، ولكن المهم متى نحصل على وظيفة لكي نستقل اقتصاديا فنبني عائلة أمها أنا وأبوها أنت.

- أعرف أن لا وظيفة بانتظارنا لأنها محجوزة لأقارب ومعارف الذين في العملية السياسية ومن يركبون معهم في القافلة. أنا سأبني عائلة وأنا أعمل في بستان العائلة وسأتزوجك.

- وستة عشر عاما قضيناها ببردها وحرّها ونحن نذهب للمدرسة وندرس، لم نرسب، بل كنّا من الأوائل دائما؟ أين تذهب؟

- هذا قدرنا حبيبتي.

مدّ يده في الكيس فألفاه فارغا فقام إلى بائع الكرزات واشترى مرة أخرى وعاد الى مكانه على المصطبة.

مدَّ بصره كما مدت هي بصرها إلى شط العرب. كانت مراكب الصيد ذاهبة إلى عمق الشط، فيما المراكب الأخرى تقوم بعبور الشط عرضيا لإيصال الناس إلى الصوب الآخر.

ظلا هكذا صامتين دون أن يقولا كلمة واحدة، مرَّ وقت طويل ولا أحد منهما قد تكلم أو سعل، أو تنحنح.

انتبه إلى صوت "شراد"، لا يعرف أي اسم يستخدمه لهذا الإنسان الطيب، وهو يربت على كتفه، ويقول له: قم، هيا نخرج. أخرجه هذا الربت والكلام من عالم الذكريات إلى عالم الواقع الذي يعيشه في ساحة التحرير.

***

الفصل الثاني

لم تمض على "كريم" أكثر من سنة في أستراليا حتى قرر أن يعود إلى العراق ويترك كل شيء ويرجع بحقيبته الصغيرة.

بهرته استراليا في كل شيء أول ما نزل فيها، بهرته النظافة، والمستشفيات، والناس، والخدمات، والمباني، وحتى حقوق الإنسان الذي جاء يبحث عنه هنا متوفرة ليلا ونهارا، فكل شخص يحافظ عليها ويدافع في الوقت نفسه عن حقوقك إذا سُلبت منك، فهو يخالفك في الرأي وفي الوقت نفسه يدافع عن رأيك، وكذلك لو ظُلمت.

وعندما سأل نفسه:

- لماذا أنا هنا ولست هناك؟

حزم أمتعته وعاد إلى العراق وقد فقد هذا الحق الإنساني الذي هو كالهواء والماء.

الطائرة تدرج على أرض المطار متجهة إلى مكان وقوفها قرب بناية المطار حيث يمتد أنبوب كبير يشبه آلة "الأكورديون" الموسيقية إلى بابها، فينزل كل المسافرين إلى صالة الوصول، ومنها إلى السيارات التي تقلّهم كلاً إلى وجهته.

كانت "حميدة" تلوّح بيدها وهي تستقبله مع أهله الذي قدموا من بساتين الناصرية لاستقباله. أول ما أتجه إليها وليس لأحد من أهله، كان يتقدم نحوها مشرعا يديه كما فعلت هي، وتعانقا، ضمها إليه بقوة، وضمته هي إليها بقوة، حملها من الأرض ودار بها عدة دورات عندها شعر بيد تربت على كتفه، انتبه، وإذا بها يد المضيفة التي تربت على كتفه وتقول له تفضل انزل إلى مطار بغداد.

كان الطريق الذي سلكته سيارة الأجرة التي ركب فيها "كريم" و"شراد" من مطار بغداد إلى ساحة التحرير طويلا جدا لأن السائق سلك الطريق الذي يعبر على جسر الأئمة ومنه إلى ساحة التحرير، لغلق الجسور من قبل قوات مكافحة الشغب وقوات الأمن.

اتضحت أمامهم معالم الطريق على أضوية السيارة لانقطاع التيار الكهربائي عن مصابيح الشوارع التي مروا بها، كان ماء المطر الذي نزل قبل أن تحط طائرتهم بدقائق على أرض المطار، قد غسلها فباتت تلمع تحت أضوية السيارة التي تسير بسرعة عالية.

كان وصول"كريم" إلى العراق فجر يوم تشريني بارد لم يكن يتحمل برده أحد فطلب من السائق أن يشّغل منظومة الهواء الحار في السيارة. سأله السائق بنبرة عالية، وبصوت جهوري، لم يشعر ركابه الاثنين أية ضغينة فيه، وقد شغّل منظومة التدفئة:

- من أيِّ محافظة استاذ؟

أجابه وهو يقرّب كفيه نحو الفتحة التي ترسل هواء ساخنا فقام بفركهما الواحدة بالأخرى ليسري الدفء في دمائهما التي تكاد أن تتجمد:

- من محافظة ذي قار؟

قال السائق بنفس النبرة وهو ينظر في المرآة إليهما سوية:

- تشرفنا بمدينة البطولة والثورة.

شكره "كريم" وقد سرى الدفء في جسمه كسريان الدم في عروقه التي أحس بتجمدها عندما خرج من المطار.

- لا أريد أن أتدخل في أمورك الشخصية ولكن ما سبب ذهابك إلى ساحة التحرير وفيها الثوار من المتظاهرين؟

ضحك "كريم" وقال:

- أنا كذلك ثائر ومتظاهر.

اندهش السائق من قوله هذا وسأله:

- ومن أين جئت؟

- من أستراليا.

- من أستراليا وتقول إنك متظاهر؟ وضحك.

- نعم، كنا في أستراليا نتظاهر، وعندما وجدت إن هذا لا يكفي عدت إلى بلدي الثائر لأثور وأتظاهر ضد من سبب في ظلمنا.

- إنك ابن أمرأة أصيلة وحليبها الذي رضعته هو درٌّ نقي وصافي.

سرّ "كريم" لما قاله الرجل، وسخن جو السيارة كذلك فزادت فرحته. قال للسائق:

- شكرا على هذه الكلمات التي لا ينطق بها سوى العراقي الأصيل.

غادر "كريم" و"شراد" الساكت إلى الآن والذي لم ينبس ببنت شفة منذ أن ركبا السيارة التي أوصلتهما إلى كراج الباب الشرقي – مدينة الثورة تحت خزان الماء الكونكريتي لأن الثوار منعوا السيارات أن تدخل منطقة التظاهر، ورفض سائقها أن يأخذ منهما أي "فلس أحمر"* كإجرة.

تذكر "كريم" ما قاله "شراد" عندما سأله عن سبب عودته إلى العراق دون أن ينتظر أخذ الجنسية الأسترالية. قال "شراد":

- إذا بقيت هنا سأموت من الجوع.

اندهش لقوله:

- وهل ترجع إلى العراق بسبب الأكل؟

استمر "شراد" في القول:

- نعم لأن الأكل لم يعجبني، حتى الأكل الحلال لم أذق فيه طعم أكل أمي.

وعندما سأل "شراد" "كريما" عن سبب عودته دون أن يبقى ليأخذ الجنسية الأسترالية قال بصوت الواثق من كلامه:

- لأشارك في الثورة.

فغر فاهه وظل ينظر له مبهوتا كأنه أخذ على حين غرة، وما زال مبهوتا وهم في العراق وقد مُنعت السيارة من توصيلهم إلى ساحة التحرير.

قطعا مسافة طويلة بصعوبة بالغة حتى وصلا الى الجموع الهادرة في ساحة التحرير، وما زال الفجر يجر آخر ذيوله فاسحا المجال لشمس ذهبية دافئة، فيما تتدلى على متنه حقيبته الصغيرة التي فيها كل شيء سوى جواز السفر وجنسية الأحوال المدنية وقد رماهما في البحر بين ماليزيا وأستراليا، عند هذا الحد افترقا،

"كريم" بقي في الساحة و"شراد" ذهب لينزل في فندق قريب، هكذا اتفقا عندما كانا في الطائرة، إذ فشل "كريم" في اقناعه بمرافقته إلى التظاهر.

لقد ساعدتهم الأوراق التي أتو بها من استراليا من الخروج من المطار هو و"شراد" وادعائهم بغرق جواز السفر وبطاقة الأحوال المدنية في البحر.

كان أول ما فعل بعد وصوله لساحة التحرير هو تجواله فيها تحت أشعة شمس تطلع خجولة على المتظاهرين في الساحة، بادئا من جدارية فائق حسن والى حديقة الأمة، ونصب الحرية لجواد سليم وحتى بناية "جبل أحد". رأى كل شيء بعينيه، رأى الساحة كيف تكتظ بالمتظاهرين، ورأى المفرزة الطبية، و"التك تكات"، ورأى طوابق "جبل أحد" وهي تكتظ بالثوار وهم يعملون كل شيء. سمع أكثر من مرة صوت رتيب لدق المسامير لتثبيت صور الشهداء في أماكن عديدة من الساحة و"جبل أحد".

ترك ساحة التحرير ونزل إلى محلات النفق التي وجدها مقفلة، والأشجار عالية وهي مخضرة بلون الأشجار في العراق، خضراء طرية، وبعضها قد أثر فيه فصل الخريف فنزع أوراقه، ورأى الشمس تشتعل في رؤوس الاشجار. ورأى مجموعة من الشباب الثوري يرسمون لوحات تشكيلية على الجدران الجانبية للنفق، وكان العلم العراقي هو إيقونة كل اللوحات التي ترسم على الجدران.

كانت ساحة التحرير وحول سطح المحلات البارزة من على سطح الأرض والتي تقع على جانبي النفق ويصل إليها بسلم كونكريتي كان في يوم ما سلما كهربائيا، مكتظة بالمتظاهرين حتى لم يعد فيها مكانا لواقف على قدميه فإنحشر "كريم" بين المتظاهرين وضاع بين الجموع الهادرة بالهتافات وأغنية "منصورة يا بغداد" التي يرددها مجموعة من طلبة معهد الفنون الجميلة.

تذكر أنَّه لم يتناول فطوره الصباحي، فأخذ "لفة كص"* من أحد الشباب التي يقوم بتوزيعها مجانا.

وعندما انتهى من رحلته الاستطلاعية تلك تنحى جانبا في زاوية خارج "جبل أحد" بعيدا عن أصوات الهتافات و"هورنات"* "التك تك"، فيما طارت بعض الحمامات التي كانت على الأشجار قرب محلات النفق واختفت في مجاهل الفضاء المفتوح، اتصل بأخيه "ساجد" في الناصرية، وجده ما يزال في ساحة الاعتصام، ساحة الحبوبي، التي تدوي فيها الهتافات وهو يسمعها بواسطة الموبايل تأتيه من الأفواه

مباشرة عالية وصافية، وأخبره أنَّه ألآن في ساحة التحرير وقرب "جبل أحد" العراق المنتصب شامخا كرجاله.

العراق بأجوائه الثائرة ضد العملية السياسية، ومحاصصة الأحزاب الدينية الحاكمة، والسرقة، والنهب، وتكميم الأفواه، والدستور الذي يشرعن هذا كله، هو ما التقاه في العراق، وكل شيء فيه ظل كما تركه، أو أسوأ منه.

***

الفصل الثالث

كانت الغرفة التي سكنها "شراد" في الفندق المجاور لساحة التحرير تطل نافذتها الصغيرة على الساحة، وبناياتها المتداخلة وغير المتساوية في العلو والعرض.

على أحد جدرانها العارية بوستر رسم فيه شخص يمد يده الى الأعلى وكفها مكور على نفسها علامة على القوة والإرادة، مع علم يلتف على ذلك الشخص، وقد كتب عليه "نازل اطلب حقي" يشير الى ثورة الشباب التي تقوم في العراق وساحة التحرير، وعلى أرضيتها فرشت سجادة صغيرة كالحة الالوان والرسوم.

كل شيء أمامه يراه من هذه النافذة التي غطت بقماش وردي اللون، وثقيل، كستارة لها.

الضوء المتسلل عبر ستارة النافذة الوردية هو الوحيد الذي تركه "شراد" يضيء الغرفة في وقت النهار، ولا وجود لمدفأة في الغرفة الباردة سوى بطانية واحدة.

رمى جسمه على الفراش ذي البطانية الوحيدة التي جلبها عامل الفندق، وبشرشفه النظيف، فصرّ السرير الخشبي ليعلن أنَّه سرير خشبي قديم دخل ورشة النجار مرات كثيرة. كان صوت ما يحدث في ساحة التحرير يأتيه عاليا مدويا في أذنيه التي لم تتعود مثل هذا الصوت العالي والهادر بهتاف "بالروح بالدم نفديك يا عراق"، ولم يسمعه في عمره الذي تجاوز الثلاثين.

أغمض عينيه، وترك نفسه تسيح مع "كريم" ومن موجود في الساحة.

كان قد تعرف على "كريم" في استراليا، وكان قد ملّ العيش فيها بعيدا عن أهله وزراعة الخضروات في أرضهم فلم يدم به المقام سوى سنة واحدة قضى منها ستة أشهر في "كمب" المهاجرين، وستة أشهر تائها في استراليا يشتغل في مهن بسيطة أتعبته كثيرا، ورافقه إلى العراق عند العودة.

نهض من فراشه واتجه إلى النافذة وحرك ستارتها إلى جهة اليسار فرأى الساحة مليئة بالمتظاهرين كأن هذه اللحظة هي لحظة الحشر كما صورتها الكتب الدينية.

رفع عينيه إلى الأعلى فهاله ما رأى من زرقة السماء وصفائها. إنَّها كماء البحر في زرقته وصفائه، إلا أن هذا الصفاء وهذه الزرقة لم تدم طويلا فقد هجمت مجموعة من الغيوم السوداء فتلبدت السماء بها فهطل المطر قليلا وما لبث أن توقف وعادت السماء إلى صفائها وزرقتها المعهودة.

كان "شراد" من عائلة تقوم بكل الفرائض الدينية التي ورثوها أب عن جدّ، في قرية من قرى محافظة ميسان تقع على الحدود العراقية الإيرانية، وكان هو لم يتأقلم مع المجتمع الأسترالي، فبقي أكثر من أسبوع يأكل الخبز ويشرب الماء خشية أن يأكل لحم الخنزير حتى التقى ببعض العراقيين الذين هدوه إلى الأكل الحلال، فأكل ما كان يجده حلالا من المأكولات بتوجيه من بعض الذين يعمل معهم من العراقيين والعرب حتى أسموه "المسلم المسكين"، إلا أنَّه لم يتأقلم مع تلك المأكولات وما زال في نفسه شيء من الأكل المحرم.

لم يكمل دراسته للمرحلة الدراسية الابتدائية، وقد ترك الدراسة وهو يعرف أن يكتب اسمه واسم أبيه، ويعرف عمليات الجمع والطرح التي يتطلبها تعامله اليومي مع مشتري خضاره بالجملة، وكان يعمل مع والده في زراعة الخضروات بين عائلة تتكون منه ومن زوجته وطفليه، ومن شقيقته المتزوجة بابن عمها.

لم يرَ بغداد في حياته، حتى سفره إلى استراليا كان عن طريق البصرة، ومنها إلى دولة الإمارات، ومن ثم إلى اندونيسيا، ومنها إلى استراليا بمركب بحري بسيط تحطم قبل وصولهم إلى استراليا بمسافة قليلة فسبح مع الذين كانوا معه على ظهر المركب حتى وصلوا إلى السواحل الاسترالية فألقت الشرطة الاسترالية القبض عليهم وأدخلتهم "كمب" المهاجرين.

هجم نسيم بارد على الغرفة، اتكأ على إطار النافذة السفلي وهو يستنشق مثل هذا النسيم البارد كهواء قريته. مدَّ بصره إلى السماء فوجدها مبقعة ببعض الغيوم البيضاء والمتحركة نحو الجنوب، السماء متقلبة المزاج، بين وقت وآخر هي بمزاج، مرة صاحية ومرة غائمة، مرة تمطر وأخرى في صحو، قال مع نفسه ذلك وراح ينظر إلى ما يقوم به المتظاهرون أسفله في الساحة التي دعاها "كريم" بساحة التحرير، وكانت حديقة الأمة لم يتوضح على أرضها أي خضار كونها مليئة بالمتظاهرين الذين يتفرجون على أحد المعارض الفنية المقامة في هواء الحديقة.

شمل كل الساحة بنظرة بطيئة وكأن كاميرا سينمائية تصور كل شيء، فرأى نصب الحرية وأدهشته تماثيله الكبيرة، ورأى بعض النفق والأشجار الظاهرة منه، وعمارة المطعم التركي، وجسر الجمهورية الذي وضعت في مقدمته صبات كونكريتية كبيرة

تقف خلفها القوات الأمنية بملابسها الرسمية، السوداء والزرقاء المبقعة، وعجلاتها، وأسلحتها الواضحة للعيان، وقد لبسوا الدروع الصدرية والخوذ.

كان "شراد" لم يترك قريته قط طيلة عمره سوى عندما ذهب مع والده لالتقاط صورة له عندما انتسب إلى المدرسة، وكان يسير أكثر من خمسة كيلو مترات ليصل إلى المدرسة التي أنشأت في قرية ثانية، وكانت كل مستلزماته الحياتية يوفرها والده عندما يذهب لبيع محصوله الزراعي.

لم ينزل "شراد" من الفندق في الليل، ولم يأكل شيئا حتى فجر اليوم الثاني الذي استيقظ فيه حيث نام نوما طويلا وعميقا، فتوضأ، ومدَّ سجادة الصلاة ذات اللون الأخضر والتي رافقته من مدينة العمارة إلى أبو ضبي والى ماليزيا، ومنه إلى استراليا حيث لم يتركها تغرق مع ما غرق من ملابس له، وصلى، ونزل من الفندق والفجر بدأ ينحسر مخلفا ورائه نور الصباح الفضي الذي تغير بعد لحظات إلى ضوء الشمس الذهبي الذي بسط أذرعه فأثقل الشوارع، وملأ الساحة ضياءً ودفئا. فحيى الصباح بالضحك منه قبل أن يستفزه الصباح ويوقظه من النوم. فرأى دبق المدن ولزوجتها لم يعد باقيا كما كان، فقد غسلهما دماء شهداء ثورة تشرين.

تناول طعام الفطور "شوربة عدس"* وصمونتين* حارتين من عربة تدفع باليد والتي رفض صاحبها أن يأخذ منه ثمن فطوره.

اندس بين جموع ساحة التحرير، تمتم بالهتاف بصوت خافت أول مرة، ثم تصاعد صوته حتى ردد مع المرددين هتاف "بالروح بالدم نفديك يا عراق"، تجوّل في الساحة، قرأ لافتات الثورة، رأى خيم الثائرين، وخيم المفرزة الصحية، رأى "التك تكات" الكثيرة وهي تتحرك ذهابا وإيابا وسواقها منتشين، اصطدم بكيس نفايات دون أن يصاب بسوء سوى أنَّه هوى إلى الأرض فاستقبلها بيديه، وضحك في سره، رأى، كذلك، نفق التحرير بأشجاره العالية والشمس فوقها تنشر أشعتها الذهبية الواهنة بحياء، أطلّ على النفق من مكانه، كان بعض الشباب يرسم على جدرانه، وصل إلى "جبل أحد"، خضع للتفتش في مدخل الجبل من قبل بعض الشباب، صعد إلى الأعلى، تسلق درجات سلالم "الجبل" الواحدة بعد الأخرى، وصل إلى سطحه العالي، ألقى نظرة على الجموع في ساحة التحرير على الأرض، حتى وصل في نظره إلى جسر الجمهورية، هاله ما رأى، كانت القوات الأمنية تملأ الجسر وهي تحتمي بأكثر من ساتر مصنوع من الصبات الكونكريتية، رمى أحدهم قنبلة دخان فوصلت إلى أرض ساحة التحرير فالتقطها أحد الشباب وركض وهو يحملها ورماها

إلى الجهة التي أتت منه، عادت مرة أخرى إلى الجهة التي رمتها، ضحك في سره، قال مع نفسه: تستاهلون ردت إليكم بضاعتكم.

لم تكن أجواء قريته كما هي أجواء بغداد الصاخبة كما رآها بنفسه، فكر "شراد" مع نفسه، إذ كانت قريته قرية زراعية معزولة تقع على الحدود العراقية الايرانية، وفقد الزمن سيطرته عليها فباتت شبه مغيّبة على الخارطة.

قفل نازلا على درجات سلالم "جبل أحد" بهدوء خشية أن يقع فيتدحرج ويكسر له عظم، وعاد إلى الفندق بعد أن تناول الغداء في أحدى الخيم مع الكثير من المتظاهرين، والساحة ما زالت تعج بهم وهم يزدادون كل ساعة.

لم يحتفظ بموبايل ليتصل بأهله لعدم وجود شبكة في قريتهم البعيدة، لهذا فإنَّه غير مشغول البال بهذا الأمر، حتى أنَّهم لا يعرفون بعودته من استراليا وهو الآن في بغداد في ساحة التظاهر، فقرر أن يسافر يوم غد إلى أهله.

حاول أن ينام بعض الوقت إلا أنَّه لم يستطع ذلك، تقلّب على الفراش عدة مرات، أغمض عينيه، شعر أنَّه لا يستطيع استجماع أفكاره هذه اللحظة، وروحه تائهة في أماكن بعيدة عنه، فقام من سريره، واتجه إلى النافذة وفتحها وراح ينظر إلى ما يحدث في ساحة التظاهر.

بدأ قرص الشمس يختفي خلف "جبل أحد" فتغيّر لون الفضاء من اللون النهاري إلى لون الغروب.

***

الفصل الرابع

عاد "كريم" بذاكرته إلى فترة تلمذته في الجامعة مع حبيبته "حميدة"، الآن هو وحيد وقد وصل للتو من استراليا الحارة إلى العراق البارد فوجد كل شيء قد تبدّل فيه حتى الجو الخريفي المتقلّب قد أصابه التغيّر فأصبح باردا كالثلج. ثم ردد بصوت لا نبرة له: إن خريفنا هو مقدمة لشتاءٍ بارد.

سار على مهل في الساحة، اصطدم أكثر من مرة بأكتاف الشباب المتظاهر، خاطب نفسه وهو ينظر الى الأشياء التي أمامه ويتذكر العلاقة التي ربطت بينه وبينها:

- هذه هي ساحة التحرير التي كنا نسير فيها بكل هدوء وسكينة كلما زرت بغداد. وهذه حديقة الأمة التي فيها تمثال الأم المنحوت من الحجر الأبيض وهو ينتصب واقفا في بدايتها وطفلها خلفها. وهذه الأرض الخضراء للحديقة التي مررت بها أنا وزملائي من أهل الناصرية نبحث عن بعض مسراتنا وراحتنا. وهذه المصطبات الخشبية التي جلسنا عليها نأكل الآيس كريم فيما يمر من أمامنا الناس يتحدثون في شأنهم. وهذه جدارية فائق حسن التي تمثل الثورة وتقع على ساحة الطيران و"مسطر العمال الأجراء"*.

رأى فوق رأسه طائرة ورقية كبيرة كتب عليها عبارة "نازل آخذ حقي" وهي تتحرك الى الأمام بفعل الرياح المتحركة التي تحدث في ساحة التحرير وفي ساحات التظاهر في المحافظات كافة.

اتصل "كريم" بـ"أحمد" صديق "ساجد" في ساحة التحرير هاتفيا، والتقى به عند باب "جبل أحد". كان كل واحد منهما مسرورا بالتعرف على الآخر.

قال "أحمد" مهللا ومرحبا:

- أهلا ومرحبا بك في ساحة التحرير، ونصب الحرية، وجدارية فائق حسن، و"جبل أحد" الذي نقف أمام بابه.

قاطعه "كريم" باسما وهو يمسك حقيبة اليد التي أتى بها لوحدها من استراليا:

- أعرف كل شيء عنكم من خلال اتصالات أخي "ساجد". لقد جاؤوا بديمقراطية الأمريكان التي صاغتها أمريكا خصيصا للعراق، وها هم يقتلون حتى الديمقراطية الأمريكية، ويجب أن نأخذ حذرنا.

تابع "أحمد" حديثه وفيه شيئا من الحزن الذي بدا عليه:

- نعم، هذا صحيح في الواقع وهو ما يحدث في العراق، وهذا الأمر لا نريده أن يؤثر فينا فيتركنا متشائمين وننسى الآمال والأحلام التي كنا نمني النفس بها من ثورتنا.

بعد أن تبادلا التحية والأخذ بالأحضان تابع "أحمد" سؤاله:

- متى وصلت من أستراليا؟

أخبر "كريم" "أحمدا" بكل شيء. وكيف أن سائق السيارة التي أجّرها من المطار إلى هنا لم يأخذ منه الأجرة. وكيف أنَّه نزل من السيارة عند جسر طريق محمد القاسم لأسباب أمنية وضعها الثائرون.

قال "أحمد" وهو يلوح بالعلم العراقي الصغير ويسلمه إلى "كريم":

- هذا العلم أصبح رمزا للثائرين المتظاهرين في ساحات المطالبة بالحقوق المشروعة للعراقيين.

فتح "كريم" العلم العراقي وقرأ العبارة التي كثيرا ما قرأها عليه وقال بعد تفكير لم يأخذ منه وقتا طويلا وكأن الفكرة تلك قد شغلت باله كله:

- منذ وقت وأنا أتمنى أن تغيّر عبارة "الله أكبر" المكتوبة على العلم بعبارة أخرى أو بشكل معين.

قاطعه "أحمد" كمن رأى ماء النهر قد تجمد:

- لماذا؟

- لا يمكن وضع هذه العبارة في علم دولة دنيوية تعيش في القرن الحادي والعشرين، وليست دولة دينية كإيران والسعودية، نريد علما دنيويا كالدولة التي يرغب بها هذا الجيل، وليس علما دينيا، لأننا لسنا دولة دينية، يا أحمد، ولكل شخص دينه الذي يرغب، ولما كان الأمر كذلك، يجب أن نترك أمر الدين للشخص وهو يعرف ما

يريد، وكيف ينفّذ الذي يريده، وليس مثل ما هما الآن متداخلان ولا يعرف كل واحد ماذا يريد. نحن نعيش أيامنا في هذه الحياة الدنيوية ولا نعيش في ماضينا. علينا أن نستخدم عقولنا بإرادتنا ولا نسمح لأي كائن أن يفكر بدلا عنا.

سرّ "أحمد" بما يحمله "كريم" من فكر ثوري متقدم وكأنه واحد من شباب ساحة التحرير الثائرة. سأله:

- وماذا يوضع بدلا عنها؟

- مثلا تمثال الجندي الذي يكسر أبواب السجن في نصب الحرية والذي موضعه في المنتصف من النصب. إنَّه يمثل كل العراقيين الثائرين بوجه الظلم.

- نعم ثورتنا ضد الظلم، والظلم هذا جاء أول ما جاء من الدستور الذي مرّ على العراقيين في وقت حرج، وأحسبهم كانوا مغمّضين، لقد مرّ بغفلة من الزمن، هذا الدستور جاء بديمقراطية المحاصصة الطائفية التي جلبت للعراقيين كل شيء سيء بالعملية السياسية.

- لا ديمقراطية عند الأحزاب الدينية، هذه الأحزاب كلها وبشتى مذاهبها تؤمن بنظرية دينية مفادها "الحكم لله ولا حكم لغيره".

وهما يتناقشان عن الدين والديمقراطية وطريقة الحكم، ويتحدثان عن العلم العراقي والدستور وما جلبه من ديمقراطية عوجاء متجهين بعيدا عن "جبل أحد"، التقى "أحمد" بأحد أصدقائه الذي أخبره إن احدى الناشطات لم تصل بيتها ليلة البارحة، وأهلها قبل قليل ظهروا على شاشة التلفزيون يناشدون مختطفيها أن يطلقوا سراحها.

صاح "كريم" بذهول مقطبا حاجبيه:

- ماذا؟!!

ردَّ "أحمد" على تسائله:

- هذه "زكاة" الحياة الديمقراطية المفروضة على الشعب العراقي.

ردَّ "كريم" بغضب:

- هذه ليست "زكاة" وإنما هي "جزية" من الدماء المفروضة يدفعها الشرفاء للحكومة الفاسدة، هكذا تتعامل الحكومة مع المتظاهرين والناشطين المدنيين.

وعندما غادر هذا الصديق الثائر قال "كريم":

- إن اختطاف المرأة حرام في الشرع، كيف يضعون كلمة "الله أكبر" في العلم العراقي الذي يجلسون تحته؟

ردَّ "أحمد" قائلا:

- لو كان المسؤولون عن الدولة والحكومة والبرلمان متمسكين بالإسلام لقلنا إن ذلك يمكن أن لا يحدث، أما إنَّهم غير متمسكين بالإسلام سوى بالمظهر الخارجي، الخادع، فالمصيبة تكون كبيرة وعظيمة جدا، لأن هذه الدماء هي دماء إنسانية.

وتابع القول:

فأغلب السياسيين يبدون لك أنَّهم رجال مؤمنون، من خلال مسابحهم، و"الرصعة"* السوداء في جباههم، واللحية القصيرة أو الطويلة، كل هذه المواصفات، وغيرها، هي علامات عن التديّن المزيف، ونسي أن الدين هو النصيحة، النصيحة في كلِّ شيء وخاصة في المعاملات، وفي الأخلاق.

قال "كريم":

قرأت مرة لأحد الفلاسفة العرب القدماء وهو يصف لحى بعض رجال الدين في عهده "بلحيّ التيوس" يمزقون حلوقهم بالأكاذيب والخرافات، وحدثنا فلان عن فلان بالزور والبهتان؛ وبرواياتهم الأخبار المتناقضة.

***

الفصل الخامس

هبط الظلام على ساحة التحرير. أضيئت مصابيح الساحة، وأنوار لوحات اعلانات المحال التجارية التي أغلق بعضها قبل ساعة، نزل "شراد" من فندقه ذي الطابقين، بعد أن صلى صلاة العصر والمغرب ودعا متمتما لأهله وزوجته وأبنائه دعاء طويلا وهو مغمض العينين خشوعا كما علمه والده ذلك، وأخذ يتجول في زحمة ليل ساحة التحرير المضاءة كأن فيها حفل عرس أو "حفل طهور"*.

لم يرَ آثار الكهرباء بصورة متقطعة وغير ثابتة إلا بعد أن وصل إلى مدينة العمارة ليستخرج له جواز سفر يوصله إلى ماليزيا كما قال صديق والده في مدينة العمارة لذلك، ورأى الكهرباء في الدول التي وصل إليها وهو في طريقة لاستراليا، أما في استراليا فكل المدن تصبح مثل النهار في الليل مثل ساحة التحرير بالضبط.

ساحة التحرير في هذه الأوقات هي نفسها في النهار، فالأصوات هي، هي. ورمي قنابل الدخان القادم من جسر الجمهورية هو، هو. ورائحة الفضاء المحيط بها هو، هو. رائحة القنابل الدخانية. هكذا وجد "شراد" الساحة التي شقَّ طريقه بين جموع المتظاهرين وهم يهتفون بإسم العراق. لقد وجدها غير هادئة بمن فيها، فالشباب والشيوخ، نساء ورجالا لم يهدأ لهم بال، فهم يتحركون في شتى الاتجاهات، والهتافات تتردد بين أرجاء الساحة و"جبل أحد"، فيما تأتي صدى أصوات من ساحة الخلاني مليئة بالهتافات الوطنية.

سمع البعض يتحدث عن شباب ساحة الخلاني التي لم يرها وهم في كر وفر، ويردّون بالحجارة على القوات الأمنية عندما ترميهم بالقنابل الدخانية، كما يفعل شباب ساحة التحرير، ولا تهدأ حناجرهم من ترديد عبارة "بالروح بالدم نفديك يا عراق".

في زحمة الجموع الهادرة في هذا الليل، التقى به "كريم"، أو أنَّه التقى بـ"كريم"، فقد كانت الصدفة التي يؤمن بها وهي من بقايا التعليم غير المباشر لعائلته، هي التي جمعتهم مرة ثانية، وكم كانت فرحته كبيرة في هذا اللقاء، تبادلا السلام وجرّه "كريم" من يده حتى أوصله إلى "أحمد". قال "لأحمد":

- أقدّم لك صديقي "شراد" من ميسان.

نظر "أحمد" إلى "شراد" بإمعان ثم قال:

- هل هو الشخص الذي عاد معك من أستراليا؟

- نعم.

كانت عيناه غائرتان، ووجهه يبدو شاحبا لمن يراه منذ أن كان في "الكمب" الاسترالي الذي ظل فيه أشهرا، حيث لم يستطع أن يأكل أي شيء خوفا من أن يكون مصنوعا من مواد محرم أكلها، وذهبت توسلات أصدقائه في "الكمب" أدراج الرياح، فعاد إلى العراق بوجه غير الوجه الذي كان عليه يوم سافر إلى أستراليا، ولم تكن حيويته النفسية والجسدية كما كانت قبل أن يسافر إلى استراليا.

قال وهو يتناول الأكل العراقي: لقد عادت الدنيا لي من جديد.

كانا يجلسان على رصيف الشارع وفوقهم يشمخ عاليا نصب الحرية، مع مجموعة من الشباب الثائر وهم يشربون الشاي الحار، فيما الهتافات على أشدها في أماكن متفرقة من ساحة التحرير ومن طوابق "جبل أحد"، وما زال الكثير من الشباب يرابطون في بداية جسر الجمهورية وقد ارتدى بعضهم خوذ الرأس المخصصة للعمال أو لسائقي الدراجات البخارية، فيما احتمت قوات الأمن وقوات مكافحة الشغب خلف الصبات الكونكريتية التي وضعتها في بداية الجسر.

تعانق "أحمد" و"شراد"، وتبادلا التحايا فيما بينهما، وأفرد له مكانا على الرصيف. جلس "شراد" وأخذ يشرب الشاي الذي جلبه له "كريم".

قال "أحمد":

- أترى كيف توزّع الشباب الثائر في مهمات كثيرة يقومون بها دون أن يسيّرهم شخص ما كقائد لهم، فمنهم على الجسر ولا تغمض عيونه لحظة واحدة عن القوات الأمنية، فهم يريدون أن يعبروا إلى الجانب الآخر للدخول إلى المنطقة الخضراء، ومنهم من يجد في استمرار الهتافات، والغناء وترديد الأناشيد، وتقديم الأكل، الشاي والقهوة، إدامة للثورة وإرادتها، وحتى الرسم، وكتابة اللافتات ورسمها هي من طرق استمرار وديمومة الثورة القائمة.

بعد صمت، قال "أحمد" لـ "شراد" متسائلا: - كيف كنت في استراليا؟

ضحك "شراد" طويلا حتى جرى صوت ضحكه فوق الرصيف الجالسين عليه وهم يشربون الشاي، وشاركه "كريم"و "أحمد" الضحك، ردَّ "شراد" وقد تحركت تفاحة آدم في بلعومه وهو مستمر بالضحك قال ببساطته القروية الصريحة:

- كنت في الجحيم، بل في الدرك الأسفل منه.

- في استراليا وتقول في الجحيم، كيف هذا؟ سأله "أحمد".

فردَّ "كريم" على "أحمد" قائلا ومذاق الشاي الحلو ما زال في ريقه:

- ألم أخبرك كيف كان يعيش في استراليا؟ وعندما وجدني أريد أن أعود إلى العراق حمل حقيبته ورافقني، وها هو بيننا وغدا سيذهب إلى قريته وتنقطع أخباره عنا.

وظلوا يتبادلون أخبار المتظاهرين وقوات الأمن، وساحة الخلاني، والناصرية، وكربلاء، والبصرة، ومدن أخرى.

***

الفصل السادس

اقتربت الأيدي الستة حول "التنكة"* التي شبّ فيها "سلام" النار بكومة من الخشب جلبا للدفء وراحت الحرارة تسري في الأيدي ومنها إلى الأجساد الثلاثة لـ"أحمد" و"كريم" و"شهد". يدا"أحمد" النحيلتان والمكتنزتان باللحم، ويدا "كريم" المعروقتان وذات اللون الحنطي* كلون بشرته، ويدا "شهد" الانثوية والناعمة والبيضاء، وكلها ترتجف من هذا البرد الذي هبّ على العراق فجأة فجمّد الدم في العروق وأصبح لون جذوع الأشجار داكنا كثيرا، وأكثر مما كان عليه، حيث كان الأطفال يرسمون جذوع الأشجار بلون بني، أو بني فاتح وليس بني غامق كما تبدو عليه في هذا البرد.

وقف الثلاثة مدّة طويلة أمام اللوحة التي يقوم برسمها الطالب في الصف الرابع من كلية الفنون الجميلة "صلاح" التي تضم العناصر التالية: بناية "جبل أحد" العراقيين بكل لافتاته وناسه وامرأة واقفة أمام مقدمة البناية، وعلم عراقي يلتف حولهما رامزا إلى إنهما محروسان من قبل العراق، وترك العبارات التي يجب أن تكتب على اللوحة إلى وقت آخر عند اكتمالها.

أشعلت الست "شذى" سيكارة، وأخذت منها نفسا وتركتها بين أصابعها ونستها حتى لسعتها حرارتها فرمتها الى الأرض، وقالت بنبرة واثقة بعد أن لمّت شعر رأسها الذي لا يغطيه أي شيء، بـ "بوند"* وتركته خلفها كذيل حصان:

ـ لقد ظُلمت المرأة بعد عام ٢٠٠٣ مرتين مرة لأنَّها عراقية ومرة لأنَّها امرأة عندما أرادت الأحزاب التي تسيّدت الموقف في العراق بعد عام ٢٠٠٣ أن تشيطنها من خلال رجالها الذين كانوا يظهرون على شاشات التلفزيون وعلى المنابر، وثقفوا الناس على أن تبقى المرأة في البيت، وأن يزوجوها وهي طفلة بعمر التسع سنوات، وحجبوها أو وضعوا على وجهها قناع أسود، ألا أنَّها في هذه الثورة نهضت مثل العنقاء من رماد ما كانوا يريدونه لها، فشقت كل تلك السجف، وشاركت أخيها في الثورة، وها هي في ساحة التحرير طالبة، ودكتورة، ومهندسة، ومعلمة، ومحامية، ورسامة، وطباخة، ومؤدية للأناشيد.

سرى الدفء في أجسام الثلاثة وهم ينظرون إلى اللوحة، فيما "صلاح" ما يزال يرسم بفرشاته وألوانه عناصرها البسيطة.

شعر "أحمد" بدفء المكان وحميميته. اجتاز ثلاثة طلاب من الكلية وقد لبسوا بدلات "چفت"* سمائية اللون وبيدهم "الباليت"* والفرشاة وابتعدوا عنهم وهم ينظرون إلى الرسومات التي يقوم بها زملائهم. قال "أحمد":

- إنَّها لوحة جميلة، فلا شيء يجلب لي المتعة برؤية الجمال مثل رؤية عمل فني جميل ورائع.

قالت "شهد" وهي توجه كلامها لـ "أحمد":

- وهي لوحة يمكن أن تكون بوسترا كاملا.

سكتت "شهد" بعض الوقت ثم تابعت القول:

- البوستر ضروري لتظاهرات الشباب الثائر.

قال "أحمد":

- عندما تكتمل اللوحة، أو البوستر، سنطبعه كبوستر ينشر في المحافظات العراقية كافة.

"شهد" أستاذة في كلية الفنون الجميلة، و"صلاح" أحد طلبتها، وهي مشرفة على جميع طلبة كلية الفنون الجميلة المتواجدين في ساحة التحرير والذين يزيّنون جدران النفق برسوماتهم الجميلة والكثيرة.

قالت وهي تبتسم:

- عندك حل لكل مشكلة استاذ "أحمد".

ردَّ عليها وقد أنعشته هذا العبارة:

- كلا ست "شهد"، أنا أعرف قدرة الشباب الثائر في الساحة وأتحرك ضمن قدراتهم الشخصية، وقدراتهم في العمل الشخصي أيضا.

سار الثلاثة داخل النفق وهم يتفرجون على الرسومات التي يعمل عليها طلاب الكلية، وقد استمر حوارهم طويلا عن الفن، فجأة سألت الست"شهد":

- ما هي أخبار ثورة أشقاءنا في لبنان؟

أجاب "أحمد" قائلا:

- إنَّها في حالة تصاعد، وكل المتظاهرين يحملون علم لبنان، ويمنعون أي علم آخر، أو مشاركة الأحزاب في التظاهر، وقد استقال رئيس الوزراء، أما نحن فالقدر معنا جميعا.

كانت الهتافات تأتيهم من أعلى النفق المفتوح على الفضاء إلا من بعض الأماكن التي تقع في جنوبه وفي شماله، فيما انتشر مجموعة من الطلبة في أماكن عديدة من نفق التحرير وهم يخططون ويرسمون ويكتبون الكثير من اللوحات والخطوط الجميلة على الجدران الكونكريتية العارية الممتدة من نهاية شارع الجمهورية إلى بداية شارع السعدون، حيث يقع على جانبي النفق من الغرب جسر الجمهورية الذي كان يسمى جسر الملكة عاليا، ومن الشرق حديقة الأمة ونصب الحرية التي ترتفع في نهاية الحديقة جدارية فائق حسن وهي تشير إلى الثورة العراقية عام ١٩٥٨.

ساد صمت بينهم وهم يسيرون متقدمين إلى بداية شارع السعدون حتى استلمت الست "شهد" دفة الكلام قائلة:

- عمادة كلية الفنون الجميلة، طلبة وأساتذة، مع المتظاهرين وها هم يرسمون على الجدران بعض اللوحات الجميلة والمعبرة عن روح الثورة والتظاهر، والعراق الجديد.

قال "أحمد":

- ست "شهد"، ساحة التحرير تشهد لكم بذلك.

تابعت الست"شهد" حديثها:

- غدا أو بعد غد سيصل إلى ساحة التحرير كادر مسرحية "نازل آخذ حقي" وهي مسرحية قام بتجسيد أدوارها طلبة الصف الرابع في الكلية، وبعدها ستعرض مسرحية أخرى قام بتجسيد أدوارها طلبة الصف الثالث في الكلية، ومن ثم ستعرض مسرحية ثالثة يجسد أدوارها طلبة الصف الثاني في الكلية نفسها، أما طلبة الصف الأول فقد توزعوا على المسرحيات الثلاثة ليكون لهم شرف المشاركة في العرض الثوري، وعلى الشباب الثائر أن يحددوا وقت عرضها.

قال "أحمد":

- هذا شيء جميل، وعلينا أن نختار الوقت الذي تعرض فيه هذه المسرحيات.

قال "كريم":

- ليكن بعد الظهر.

قالت الست "شهد":

- حاولنا أن تكون هذه الأعمال المسرحية لوقت قصير، وقت عرضها هو نصف ساعة.

هزَّ "أحمد" و"كريم" رأسيهما علامة الموافقة. قال "أحمد" مصدقا على قولهما:

- هذا جيد في زحمة ساحة التحرير وما تتطلبه من أمور أمنية، وقنابل الدخان والرصاص الحي لم يتوقف على رؤوس من في الساحة، علينا أن لا ندع الشباب يتركون مهامهم وأعمالهم في الساحة.

قال "كريم":

- وأعمالهم كثيرة، إذ لا يمكن أن يأخذوا وقتا طويلا في رؤية المسرحية.

سارعت ست"شهد" وقالت:

- يمكن أن نعيد عرض كل مسرحية أكثر من مرة ليشاهدها أكثر عدد ممكن من شباب الساحة.

وافقها الاثنان بهزة من رؤوسهم.

أخرجت ست "شهد" بعض "الچكليت"* من حقيبة اليد التي لم تتركها طيلة هذه الفترة وأعطت كل واحد منهما "جكليتة" واحدة وقالت مبتسمة:

- حلّو حلوقكم.

أخذا منها "الچكْليت" ونزعا الغطاء، ووضعاهما في فيهيهما ولاكاها وغادرا مكانهما بعد أن ودعاها.

تركت ست "شهد" انطباعا جيدا في نفس كل من "أحمد" و"كريم" فغادراها وهم يكنّون لها احتراما كبيرا.

***

الفصل السابع

لم يكد "كريم" ينتهي من زيارته لـ"جبل أحد" العراقيين حتى التقى بـ"شراد"، وبعد تبادل التحايا سأله "كريم" عن سبب تسميته بـ"شراد".

تبسم "شراد" وقال:

- لماذا تسأل؟

نزل "شراد" من الفندق ليبحث عن "كريم" في ساحة التحرير التي جعلها بيته، فهو ينام ويأكل فيها وله صداقات كثيرة من المتواجدين فيها حتى أنَّه قال لـ "شراد" لقد أصبحت الساحة مثل بيتي والناس الذين فيها مثل أهلي، نزل من الفندق لتوديعه لأنه مسافر إلى قريته التي تقع على الحدود العراقية الإيرانية ولم تكن مثبتة على أي خارطة كانت.

قال له "كريم":

- سلم لي على أهلك، وودعه وهو يعرف أنَّه سيعود إلى الساحة بعد قليل لِما رآه في عينيه من لهفة وشوق لعمل أي شيء يطلب منه، حتى أنَّه قام بغسل أواني الأكل بيديه ظهر يوم أمس.

مرا بصاحب"تك تك" يقوم بتصليحها، فسأله "كريم" إذا كان يريد مساعد فإنَّه حاضر لإبداء أي مساعدة فشكره صاحب "التك تك"، فالتفت لـ "شراد" وقال له وشبه ابتسامة تلوح على وجهه:

- قبل أن تذهب لأهلك، لم تقل لماذا أسموك بهذا الاسم؟

- لا أعرف لماذا ولم أسأل أبي عن ذلك. قال ذلك "شراد" وسكتت، وكان الصمت هو اللغة الوحيدة التي كانت بينهم حتى وصلا إلى خيمة المفرزة وسلما على من فيها.

غادر "شراد" ساحة التحرير راكبا "تك تك" طلب "كريم" من صاحبها أن يوصله إلى كراج النهضة.

كان الجو في ذلك اليوم دافئا، والسماء تسبح في زرقته شمس ذهبية ترسل إشعاعاتها إلى الأرض بكل حيوية فمنحت الشباب في ساحة التحرير طاقة عظيمة في استقبال تظاهرات النقابات والاتحادات فشاركوهم في ترديد الأهازيج والهتافات وقد كانوا وهم يدورون حول ما خرج من بناء محلات النفق فوق سطح الأرض أن مروا على الشباب المرابط في بداية جسر الجمهورية قرب الصبات الكونكريتية التي وضعتها قوات الأمن واحتموا خلفها.

كانت كل نقابة أو اتحاد يدخل ساحة التحرير يرفع لافتة باسم النقابة أو الاتحاد ويرفع لافتات أخرى بمطالب الجماهير ومطالبهم هم كنقابة أو اتحاد.

رفعت احدى النقابات لافتة تقول "تغيير الحكومة مطلب جماهيري"، ونقابة أخرى ترفع لافتة تقول"إلغاء الدستور مطلب جماهيري"، ولافتات أخرى ترفعها النقابات والاتحادات تدعو إلى طلبات الجماهير وأهمها العملية السياسية ونبذ الأحزاب الطائفية القائمة في هذه العملية.

كان "كريم" وقتها يقف قرب خيمة الطبابة يملأ مجموعة من قناني الماء بخليط "الخميرة" بالماء وهي العلاج الوحيد مع مادة البيبسي كولا لغازات القنابل التي ترميها عليهم قوات الأمن فباغتسال وجه وعيون المصاب تزول منه أثار الدخان الذي تحمله القنبلة.

أخبره "أحمد" بعد أن وصل له قرب خيمة المفرزة الطبية أن أحد أصدقائه في ساحة الخلاني أخبره بأن الشباب في الساحة تقدموا نحو قوات الأمن الموجودة خلف ساتر صبات الكونكريت وقد أوقعوا واحدة من الصبات الكونكريتية حيث فتحت قوات الأمن النار على المتظاهرين بالرصاص الحي وأصيب أثنين من الشباب وهم الآن في المستشفى.

عندما صعد "شراد" في "التك تك" وسار به حتى وصلا إلى جسر طريق محمد القاسم وقبل أن يصعدوا الجسر للذهاب إلى كراج النهضة، قال "شراد" لسائق الـ "تك تك" وهو يترك مخاوفه جانبا، أن يستدير ويعود إلى ساحة التحرير فقد غيّر رأيه في الذهاب إلى قريته البعيدة الساكنة والساكتة والصامتة ويترك الشباب الثائر.

سأله سائق "التك تك""

- لماذا يا سيدي تعود للساحة؟

أجابه بكل ثقة:

- قبل أن أصعد الجسر افتقدت للحميمية الموجودة في ساحة التحرير، إن ذاك المكان يبث الدفء في الجسم والروح.

قال له صاحب "التك تك" بدافع من رأيه البسيط:

- أنت كبير ولا أعتقد أنك ستندم على هذا القرار.

***

الفصل الثامن

لا أعرف ما الذي دفع بذهن "شراد" ذاك الوقت أن ينشغل بمسألة مضحكة طرحت في بيت عائلته وهم يتندرون على "مزعل" ابن عمه الذي يربّي الطيور ويبيع ويشتري بها، فالنادرة التي تقول"أن مربي الطيور لا تأخذ شهادته في المحكمة" والتي كان يرددها ابن عمه الثاني"جميل" هي نادرة ولم تكن صحيحة. ضحك في سره وهو يرمي نفسه في خضم هذا البياض الذي جلل الفضاء، فقد أصبح لون السماء كاللبن في بياضه، لقد بان الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وراحت أولى اشعاعات الشمس تنبعث في الفضاء حاملة الضوء والحرارة، وبدأت الطيور تغادر أعشاشها بعد أن كانت نائمة وهي تحلم بغد يزدهر بالطعام والماء، وقد انفجرت حيوية أوراق الأشجار النامية لصناعة غذائها الجديد لهذا اليوم. وقد أشرق النفق بضوء الشمس العالية التي تنظر الى ساحة التحرير، وجبل أحد، كطفلة مزهوة، وقد غفت ظلال أشجار النفق على الأرض، وراحت أغصانها في الأعالي تتحرك، فانحلت الروابط بين الغصن والأوراق التي أدركها اللون الأصفر البطيخي فسقطت خفيفة على الأرض، في زحمة الرياح التي أخذت تذروها وتنقلها من مكان لآخر. ووحدها هذه الأوراق تعرف الى أي مدى وصلت معاناة الثائرين.. في تلك الأجواء قام "شراد" من مكان نومه في أحدى الخيم المنصوبة في الساحة، وأسرع الى خزان الماء المعدني، وتوضأ بسرعة، وعاد الى الخيمة، وصلى صلاة الفجر، وهو يعرف أن وقت الصلاة فاته من وقت بعيد.

تذكر عائلته التي كانت تنهض "من طگّة البريج"* لتتوضأ وتصلي صلاة الفجر صغارا وكبارا، نساء ورجالا، وبعدها تتناول الفطور الذي هو عبارة عن خبز وشاي، وفي بعض الأحيان يكون بيضا مسلوقا أو مخفوقا بالدهن، أو خبز و"روبة"، ثم يخرجون إلى الأرض ليعملوا فيها حتى وقت الظهر، ولم يتأخروا يوما واحدا عن صلاة الفجر كما تأخر هو اليوم، فمال على نفسه تقريعا ولوما.

خرج من الخيمة التي فرغت من الشباب، وراح يبحث عن "كريم"، صديقه الصدوق كما كان يقول دائما كلما تذكره، سأل نفسه: كيف يجده وهو كمن يبحث عن إبرة في كومة قش؟

راح يبحث عنه في كل مكان، يسأل أصدقائه، وقد بحث عنه في طوابق "جبل أحد" فلم يجده، وبعد جهد بذله هذا اليوم وجده جالسا على رصيف الشارع تحت نصب الحرية مع مجموعة من الشباب وهو يتناول فطوره، سلم عليه، أتى بفطوره المتكون من صمونة واحدة وقليل من الجبن واستكان من الشاي وكلها توزع مجانا، وجلس بالقرب منه، وقد انتعشت في نفسه آمالا ورغبات كثيرة.

سأل "شراد" صديقه "كريم" مستفسرا:

- هل ستذهب فعلا إلى الناصرية؟

عرف عنه إذا قال فعل، وقد أخبره كما أخبر زملائه في الساحة إنه سيذهب لأيام قليلة إلى الناصرية لزيارة أهله والوقوف على الثورة هناك.

- متى ستسافر؟

ردَّ عليه "كريم" بصوت نبراته ثابتة:

- غدا سأسافر، لأزور عائلتي وبعدها سأعود مرة أخرى إلى بغداد إذا لم تتحقق مطالبنا في هذه الفترة.

قال "شراد" بنبرة ثابتة:

- أما أنا فسأظل هنا حتى أشعر بالملل، ولا أظنني أملّ من هذه الأجواء، أو أكون أكثر اشتياقا لعائلتي فسأرحل إلى قريتي، أنا اشتقت لقريتي الهادئة الجميلة ولكني لم أذهب الآن، لم يحل الوقت بعد.

توقف عن الكلام ومسح قطرة أو قطرات قليلة من الدمع الذي نزل على خديه، وتابع قوله:

- وربما أعود أو لا أعود، لا أعرف. ولكني أعرف أنني سأغير أسمي عندما أعود إلى قريتي.

سأل "كريم" مندهشا:

- ستغيّر اسمك؟؟؟!!

- سأغيره إلى "تحرير"، أو "ثائر"، أعتقد أني سأختار "ثائر".

كانت نبرة صوته ودودة وحميمية ولا تحمل أية عصبية أو ضغينة كما عرفها فيه في الأيام الأولى من تعارفهم في استراليا.

- أنت رجل بسيط وصادق، والذي في قلبك يبان على لسانك، إنك إنساني في تعاملك وهذا ما حبّبك عندي.

كانت أخلاق "شراد" هي أخلاق الإنسان القروي الذي لم تلوثه المدينة بحيلها، فكانت بسيطة وصادقة.

نظر "شراد" في وجهه مليا بعد أن ملأه بابتسامة عريضة، وعندما أراد أن يشكره سمعه يقول:

- أنا لست متزوجا مثلك، أنا أعزب عندما ذهبت إلى استراليا وها أنا عائد منها وأنا أعزب أيضا، لكنني أحب، وقد فضلت الابتعاد والوحدة في هذه الظروف غير المعروفة.

ضحك "شراد" في وجه "كريم"، فيما تابع "كريم" قوله مؤكدا وهو يكتم ضحكة على ما قاله:

- أنا حر في اتخاذ قراري ولست مسؤولا أمام أحد سوى والديّ وهم يتفهمون جيدا ما أقوم به.

وكان يريد أن يخبره بأنَّه مسؤول أمام حبيبته "حميدة" إلا أنَّه أحجم عنه ذلك.

كان الشباب المرابط على الجسر قد استطاعوا أن يسقطوا أحدى الصبات الكونكريتية على الأرض، فانكشفت جبهة قوات الأمن، فرفعوا الدروع الشفافة إلى الأعلى ووقفوا خلفها، وهيّأوا هراواتهم السوداء، وراحت بنادق بعضهم ترمي الرصاص الحي على الشباب الذين أحتموا خلف الصبات الكونكريتية، حماية لأنفسهم من الرصاص الحي.

كان كل شيء أمامهم واضحا وبيّنا، يروه بأم أعينهم التي أكلها النعاس ولا أحد أخبرهم به، فيما الشباب في ساحة التحرير وحديقة الأمة راحت تردّد هتاف "بالروح بالدم نفديك يا عراق" وأمتد هذا الهتاف حتى وصل إلى تقاطع جسر طريق محمد القاسم شرقا، و"جبل أحد" وجسر الجمهورية الساقطة فيه صبة كونكريتية، وعليه تقف القوات الأمنية، والشباب الثائر، غربا، والى ساحة الخلاني التي يرابط فيها مجموعة من الشباب الثائر شمالا، وشارع السعدون وحي البتاويين جنوبا.

قاما "كريم" و"شراد" وتحركا إلى الأمام ومرت بهم "تك تك" تحمل مصابا ومجموعة من الشباب المرافق له وهم يأخذونه إلى أقرب مستشفى.

كان كل منهما لا يحتل قلبه سوى العاطفة الوطنية الفياضة، والتي صاغتها ساحة التحرير، و"جبل أحد"، ونصب الحرية، وجدارية فائق حسن، فشاب نفوسهم حزن شديد على هذه الجموع الهادرة وهي تثور على الواقع المزري التي تعيشه.

كانت الخيمة التي ينامون داخلها مع الكثير من الشباب لم يسمع فيها سوى زفير النائمين بعد الجهد الذي بذلوه في النهار... لقد عادا سوية بعد انتظار المعركة التي حدثت في ساحة الخلاني وعلى طوابق "جبل الشهداء" وتذاكرا كيف أنهم وبعض الشباب الثائر أقنعوا شباب ساحة التحرير أن يرابطوا في مكانهم لان العصابات التي هجمت على ساحة الخلاني، ربما، أرادوا أن يسحبوكم فتفرغ الساحة منكم عندها يحتلوها هم.

كان الشهداء الذين وقعوا جراء هذا الاعتداء كثيرا جدا، والاصابات أيضا كثيرة.

تمدد على فراشه، وتذكر حادثة ساحة الخلاني، وحديثه مع صديقه "كريم" عن الوطنية والعدالة الاجتماعية، والحرية، ومسائل أخرى. ناقشه فيها "كريم" برحابة صدر وفكر منفتح وضمير حي، فأنتعشت وارتاحت نفسه كثيرا، وزفر طويلا ما علق في رئتيه من هواء غير نقي، فغفى بهدوء دون أن يعلم كيف غمضت عيناه.

***

الفصل التاسع

استيقظ "كريم" من منامه مفزوعا كمن سقط بين وحوش لا يمكن الخلاص منهم، وبالكاد كان يفتح عينيه ليسمح بتسلل الضوء الخافت، الذي ينير أجواء الخيمة، داخلهما فتعودا مرة أخرى لوضعهما المسدود، تكرر ذلك عدة مرات. تراءت له نفسه وسط مشهد مخيف، أرض سبخاء مترامية الأطراف فيها قليل من الأشجار الجافة والعجفاء والنخرة جذوعها، منزوعة الأوراق كأن الخريف لم يغادرها لحظة واحدة، وهو يركب حمارا أجربا يتحرك بصعوبة، ولا يعرف أين هو وفي أي مكان. كان يقول للحمار الأجرب، أو ما رأه بهيأة حمار: أنا أثق بالشيطان لكني لا أثق بشياطين السياسة.

إنه كابوس مفزع ومرعب أفقده هدوءه، وكان ما رآه في منامه هو ما شغل باله بعد أن انهضه من منامه وقد كان الوقت قبل أن يبزغ الفجر بقليل حيث ما زال الكون يعيش في ظلام الخيط الأسود، وخطوة واحدة تفصل بين الخيطين.

جلس في فراشه الذي هو عبارة عن سجادة ووسادة وبطانية جاء بهم صديقه "أحمد" من عائلته، حرك رأسه في أرجاء الخيمة فرأى الجميع نائما من شدة تعب يوم أمس تحت رحمة الرصاص الحي وقنابل الدخان، وكانت الإنارة قليلة جدا ولا صوت سوى صوت تنفسهم، أو شخير بعضهم بصوت غير متوافق بينه وبين صوت التنفس.

كان صديقه "شراد" يغط في نوم عميق وهو يتنفس بصوت مسموع مع قرقرة صوتية بين حين وآخر تخور* في حنجرة، وحتما – فكر "كريم" في نفسه - إنه يحلم بقريته وأهله، وبوالديه وزوجته وأولاده وشقيقته ولا شيء يشغل باله كما شغل هؤلاء باله بعد أن تركهم وهم في قرية نائية بعيدة عن شبكات الاتصال، فكان الاتصال معدوما معهم خلال عام واحد قضاه في استراليا.

قام من على فراشه، خرج من الخيمة بهدوء لكي لا يوقظ الشباب النائم، غسّل وجهه، أحكم شد "قمصلته"* على جسمه جيدا.

كان صوت الليل هو الذي طغى فأبعد صوت النهار من الساحة، و"جبل أحد"، وتحت نصب الحرية، وحديقة الأمة.

هبت الرياح قليلا، فنزل المطر رذاذا، فيما استمر "كريم" ماشيا وهو يتجول في الساحة باحثا عن صديقه "أحمد" ونفسه غير مرتاحة عن نفسه التي باتت لائبة في ذلك الوقت المتأخر والساحة تموج بالشباب الذين لا تهمّهم ساعات الليل سوى ما تمنحه لهم من أصرار زائد وغير قابل للتفاوض أو النكوص عن حقوقهم المسلوبة. فيما غرق النفق بظلام يطرده بتكاسل ضوء خافت ينبعث من مصابيح ساحة التحرير، وقد نام فيه بعض الشباب الذين كانوا يرسمون اللوحات التشكيلية لتجميله في أماكن متفرقة، فيما هدأت الطيور في أكنانها في أعالي أشجاره، وحتما إنها قد غفت وهي تحلم بيوم جديد.

مرةٌ دخل "كريم" مع بعض الشباب من طلبة الكلية في نقاش طويل في ما إذا كانت الحيونات، ومنها الطيور، تحلم في نومها؟ لم يصلوا الى جواب محدد يصدّقه هؤلاء الطلبة، ولا هو، فقد كانوا غير مختصين بعلم الحيوان، وكذلك لم يقرأوا ما يؤكد ذلك، أو ينفيه، ولا قاموا بأنفسهم بتجارب على الحيوانات والطيور لتأكيد ان كانت تحلم في منامها أم لا.

ما زال "كريم" يمشي بلا هدى، فمرّ على مجاميع شبابيه، بعضهم وجده نائما، وبعضهم الآخر وجده ضمن تجمعات يتحدثون فيما بينهم، ويطلقوا النكات والطرائف، وقسم آخر يطلق الحزّورات، حتى وصل الى "جبل أحد" فالتقى بـ"أحمد" وهو يقف في مدخله يتحدث مع مجموعة من الشباب المختصين بحمايته وتفتيش الداخلين من بابه.

عادا هو و"أحمد" الى الساحة وما زال نصب الحرية شامخا وهو يخبر من يراه بخبر الثورة التحررية وتغيّر العملية السياسية من الحكم الملكي الى الحكم الجمهوري. تحدثا كثيرا، ومرا في حديثهم على طاري* "شراد"، إذ أخبر "كريم" "أحمدا" عن "شراد" قائلا:

- أن "شراد" يمتلك ذكاءً فطريا وقد اكتسب وعيا اجتماعيا وسياسيا ثوريا لايمكن المساومة عليه، فقد آمن بالوطنية الحقة، وبالحرية، والعدالة الاجتماعية والسياسية، وآمن أن الوطن للجميع، والدين لله، فالمساجد مفتوحة لمن يريد أن يقيم الفرائض الدينية بدون تدخل بالسياسة، وقد قرر أن يبقى هنا حتى يملّ الساحة أو تملّه هي، أو يذوب شوقا لأهله فيرحل لهم زائرا، حتى تحقيق مطالب الشعب، وفوق ذلك انتبه الى

اسمه فقرر أن يغيّره الى "ثائر" عندما يعود الى قريته في دفتر الأحوال المدنية، وقد غيره هنا الى "ثائر".

***

الفصل العاشر

في صباح هذا اليوم المشرق الجميل والذي جاء ليس على عادة الأيام الباقية في فصل متقلب في أكثر مناطق العراق، وبعد أن مرت على "كريم" عشرة أيام في بغداد منذ أن عاد من استراليا، هروبا من الأوضاع في العراق، دون أن يستلم الجنسية الاسترالية، ودون أن يذهب الى عائلته في الناصرية، فقد قضاها مع هؤلاء الشباب المنتفض والثائر، وقد أقام علاقات صداقة مع الكثير منهم، وقام بأفعال وممارسات خدمية كثيرة تطلّبتها حالة المتظاهرين، أو قام بها من تلقاء نفسه، كتنظيف الساحة، أو نقل بعض تبرعات الناس من البطانيات والفرش، وإيصال بعض المواد الغذائية الى الشباب، وإقامة الأماسي الثقافية في المكتبة التي أعدّها المتظاهرون في أحد طوابق "جبل أحد"، أو "جبل الشهداء" قرب جسر السِنَگ، كل ذلك تذكره "كريم" في هذا الصباح وهو يتصل بأخيه "ساجد" في الناصرية وأخبره أنَّه سيصل اليهم يوم غد.

فرح "ساجد" بهذا الخبر فأخبره عن قتلى ذلك الذئب البشري في الناصرية على جسر الزيتون*.

طلب منه "ساجد" أن يبحث لوالدته عن دواء الضغط الذي كتب اسمه على موبايله الشخصي "ATACAND PLUS- 16-125MG" لأنه مفقود في صيدليات الناصرية هذه الأيام.

قال "حميد" الى صاحب "التك تك" "علي"، ذات اللون البرتقالي، والتي يلصق عليها صورة لأخية الشهيد في ساحة التحرير، وقد عادا توا من أحد الصيدليات القريبة التي لا يوجد فيها ذاك الدواء:

- هذا الدواء كان متوفرا في صيدلية "بلاط الشهداء" في كل محافظة بسعر رمزي لأصحاب الأمراض المزمنة وقد غاب عن هذه الصيدلية هو وبقية أدوية الأمراض المزمنة الأخرى بفضل الدكتورة التي أصبحت وزيرة للصحة فكانت وزارة الصحة في عهدها قد أصبحت وزارة تبحث عن الربحية.

بعد أكثر من ثلاث ساعات وهو يبحث عن الدواء في صيدليات بغداد، وجده في صيدلية بمنطقة "بغداد الجديدة"*. ابتاع منه أكثر من عشرة "شيتات"*، وعاد الى الساحة هو وسائق "التك تك" الذي قضى نصف نهاره ما بعد الظهر وهو يبحث معه عن الدواء.

اتصل بأمه مرة ثانية وأخبرها بأنَّه وجد الدواء، وسيكون عندها يوم غد، شكرته وطلبت منه أن يأتي بهدية لـ"حمدية".

آه يا أمي كم هي رائحتك طيبة كرائحة الأشياء الطيبة والجميلة في الحياة، كم أنت رائعة يا أمي، تتذكرين "حمدية" ولا تهتمين بدوائك.

هل تتذكره الآن؟ سأل نفسه، وكان حزينا، وتابع: بعد هذه الفترة الزمنية التي امتدت لأكثر من عام، وإنقطاع الإتصال بيننا، ماذا أظنّها فاعلة بي؟ هل نست حبي لها؟ هل هي غاضبة مني؟ آه يا "حميدة" لو تعرفين كم أنا أحبك؟ والأمور في هذا اليوم ليست كما كانت قبل أكثر من سنة حيث كنا قاب قوسين أو أكثر من أن أتقدم لخطبتك لولا موت جدتك، وبعدها جدك.

وتابع مناجاته لخيال "حبيبته" في ذهنه وكأنَّها تقف أمامه بالضبط ناشرة شعرها الأسود الليلي على كتفيها:

- "حميدة" يا حبي الأول والأخير إنَّ سعادتي الحقة هي معك، معك فقط، صدقيني.

ها هي أمه تراءت له من بين تلافيف ذاكرته التي ازدحمت بالكثير وهو يزمع العودة الى أهله، قالت له: لماذا لم تأت إلينا هذه الفترة الطويلة وأنت في بغداد؟

قال لها وهو يمسح دموع عينيه التي جرت على خديه ساخنة، حارقة:

- آسف يا أمي، سأكون عندكم يوم غد.

خاطبها في ذهنه وكأنَّه يخاطب حبيبته "حمدية"، وتابع قوله: الوطن يريد مني الكثير يا أمي، لا تخافي عليّ فأنا ما زلت شابا وأستطيع أن أحمي نفسي. لقد صار لي أصدقاء هنا في ساحة التحرير من أغلب محافظات العراق وهم مثل أخي يا أمي، صدقيني حتى الشاب الكردي "آزاد" جاء من السليمانية ليشارك أبطال ساحة التحرير وساحة الخلاني عرسهم الثوري وهم يؤدون واجبهم في المظاهرات وفي كلِّ شيء.

كان حديثه مع أمه ينثال على ذهنه والدموع تنزل على خديه وقد إحمرا من سخونة هذا الدمع المصبوب من مآقيه كالحمم البركانية.

ظل "كريم" مع ذهنه الذي أراه أمه و"حميدة" التي لم يقرأ أي شيء في وجهها السمح، أهي غاضبة؟ أم إنَّها قد سامحته؟ لم يصل الى نتيجة مع وجهها الذي انتصب أمامه كعلامة استفهام كبيرة ولولا صديقه "أحمد" لبقي ولم يخرج مما أراه ذهنه من صور مؤلمة.

قال له أحمد":

ـ تعبت كثيرا حتى وجدتك، ماذا كنت تفعل يا أخي؟ ولِمَ عيناك حمراوتان، ها؟ أكنت تبكي؟

ضحك "كريم" في وجه "أحمد" و"ثائر" وساروا سوية الى الساحة التي اكتظت بالمتظاهرين من كل الفئات وهي تحتفل بمرور شهر على بدء الحراك الشعبي والخروج بتظاهرات امتدت على طول المحافظات الوسطى والجنوبية وهي تطالب بوطن مسلوب، وبحقوق سلبتها الأحزاب الحاكمة.

عرف من بين المتظاهرين نقابة المحامين من خلال لافتة رفعوها في مقدمتهم، ونقابة المعلمين، ونقابة العمال، ونقابة المهندسين، ونقابة الأطباء، ونقابة الصيادلة، ونقابة ذوي المهن الصحية، ونقابة الفنانين، واتحاد الأدباء، وغيرهم من النقابات والاتحادات.

وهو يهتف مع المرددين لشعار معروف أزّت رصاصة من جنب أذنه، وثانية، ولعلع الرصاص الحي في أجواء الساحة، حتى الحمام الذي بنى له أعشاشا خلف تماثيل نصب الحرية قد "فزّزه"* فطار مذعورا وابتعد في السماء واختفى عن الأنظار هاربا فقد أفزعه صوت الاطلاقات.

خلت الساحة بسرعة عالية كانهمار الرصاص عليها من المتظاهرين، ولاذ الأصدقاء الثلاثة خلف ساتر كونكريتي صغير يعلو فوق الأرض بقدر علو رصيف عادي وقد وضعه المتظاهرون ليحميهم.

كان الرصاص الحي يأتي من جهة جسر الجمهورية، فيما يصيح الثائرون الذين فوق "جبل أحد" بالمتظاهرين أن يحتموا من هذا الرصاص القاتل، عندها لمحوا من بعيد متظاهر يسقط مضرجا بدمائه، فسارعت مجموعة من "التك تكات" مع مجموعة من المتظاهرين إليه، حملوه بسرعة وانطلقوا به الى المفرزة الطبية.

هدأ الرصاص، وسكت كلَّ شيء في الساحة والنفق و"جبل أحد"، وقد عادت بعض الحمامات الى أعشاشها في نصب الحرية وظلت ترقب وضع الساحة، ومرت لحظات قصيرة على هذا الصمت الذي كسره صوت المتظاهرين، حيث انفجر صوت الذين خرجوا من مجهول ثنايا الساحة وعادوا بكثافة إليها حتى لم يبق شبر واحد فارغ من الأرض وهو يهدر عاليا بهتاف يعلو فوق أي صوت آخر "بالروح بالدم نفديك يا عراق".

امتلأت ساحة التحرير بالرجال والنساء، وبالكبار والصغار، وصبت فيها حشود المتظاهرين الثائرين من شارع السعدون وأزقته، ومن شارع الرشيد وأزقته، ومن ساحة الطيران وأزقتها، ومن حديقة الأمة، حتى وصلت الجموع الى تقاطع جسر طريق محمد القاسم*، جاؤوا من شتى الدوائر الحكومية وقد وفدوا الى الساحة، حتى الموظفون في الدوائر الحكومية القريبة من الساحة نزلوا وهم يرددون هتاف "بالروح بالدم نفديك يا عراق".

دوى الهتاف عاليا وكان يسمع صداه من بعيد في ساحة الخلاني، وفي الجانب الثاني من نهر دجلة حيث تقبع المنطقة الخضراء وهي ترتجف خوفا، وإلى شارع فلسطين البعيد من جهة الشرق ومنطقة العلاوي من جهة الغرب، لقد تجمع الكل في ساحة التحرير حتى اكتظت بهم فبات المتظاهرون يدفعون بالصبات الكونكريتية الكبيرة فوق جسر الجمهورية وقوات الأمن تتحصّن خلفها ليسقطوها، إنَّه منظر تخشع له القلوب وتقشعر له الأبدان، وتفرح له النفوس الثائرة، وكان "كريم" الذي يعدّ هذه الساعات هي ساعاته الأخيرة في بغداد وبعدها سيغادر إلى أهله في الناصرية ليكون بينهم، وبين أصدقائه، وقرب حبيبته "حميدة"، بين الجموع الهادرة.

كان وهو يقف مع أصدقائه وفي ذهنه طفت على سطح تفكيره مقولة قرأها سابقا فظلت تجول في خاطره، هي "إنك تستطيع أن تقتل الثوار ولكن لا تستطيع أن تقتل الثورة"، فشعر بأنَّه يتلقى ضربة على رأسه، كانت قنبلة دخان زنة ٥٠ غرام نبتت في رأسه فشجته إلى نصفين والدخان يتصاعد منها عاليا وينتشر في الفضاء مشكلا سحابة سوداء فوق الرؤوس، خرّ على ركبتيه مرة واحدة فتلقفته الأرض، رافعا رأسه حيث السماء زرقاء صافية، وقد سبح بدمه فاتحا عينية وكأنَّه يقبّل الشباب الثوري في ساحة التحرير، واحدا فواحدا، مبحلقا بصديقه "أحمد" الواقف بالقرب منه كأنَّه يودعه، حيث شمَّ الرائحة التي تتميّز بها ساحة التحرير والتي تعوّد، كلما صار فيها، أن يشمها بعمق.

كل ذلك مرَّ أمامه على شكل أشباح، صور أهله ومعارفه وأصدقائه وحبيبته "حميدة"، بينما وقف صديقه "أحمد" مذهولا من هول ما رأى، وشعر "ثائر" بأن ظهر جسر الجمهورية قد انهار من هول الفاجعة تحت الذين يقفون على ظهره وانهار مرة واحدة بالقوات الامنية وقوات مكافحة الشغب، فسقطوا في النهر الجارف ... عندها مدده ووضع رأسه في حضنه فامتلأت كفاه بالدم الفائر القاني وهو يصرخ بهستيرية بأصحاب "التك تكات" بأن يأتوا لحمله ونقله إلى المفرزة الطبية، إلا أنَّه غادر دنياه ودنيا "حميدة"، وعند اسوداد الدنيا في عين "كريم" التي كانت فيها نصال شفرات حادة، أو زجاج مكسور يعمل فمزقتها تمزيقا.

توقف الزمن كليا عند "كريم"، انمحت أي صورة للعالم الموجود خارج ذاته التي فقد سيطرته عليها فإنساحت روحه الى الخارج بعيدا عن جسده الذي ظل بين يدي صديقه "ثائر".

استسلم "كريم" بهدوء إلى اللا شيء وهو في حضن صديقه "ثائر" وأيديهما متماسكة بقوة.

صَمَتَ كل شيء كصمت مقبرة في ظهيرة يوم قائض كالجحيم، وسكت صوت رمي الرصاص الحي. وفجأة أخذ الغليان يفور* في ساحة التحرير وسرى ممتدا حتى وصل الى ساحة الخلاني والشباب الثوري الهادر بالهتافات، فيما قام "ثائر" وهو يحمل جسد صديقه "كريم" المضرج بالدماء وتوجه الى نصب الحرية يتبعه صديقهم "أحمد" والكثير من شباب الساحة الثائرين وهم يزدادون كلما اقتربوا من النصب، بينما طارت حمامات من خلف تماثيل النصب وهي تظلل الشباب وبينهم الشهيد "كريم" من شمس صباح ذاك اليوم، وفجأة تلبدت السماء بالسحب الرعدية الماطرة، فراحت ترسل زخات مطرها على رؤوس السائرين، وأصوات رعدها، وثمة حمامة بيضاء مصابة بأحد أجنحتها تقف قرب أحد المحال المغلقة بهدوء وسكينة وأمان وهي تحاول الطيران مرة أخرى.

***

(تمت – ٨ /١٢/ ٢٠١٩)

معجم ما إستعجم:

*** الفصل/١:**

- اشجار النبك: أشجار النبق، وتسمى أشجار السدر.

- لوح الجت: كان المزارعون يقسمون أرضهم الى مجموعة أقسام متساوية تقريبا يزرعونها بنوع من الخضار تسمى "ألواح".

- نفنوف: نوع من ثياب طويلة للمرأة.

- شطب: طويل ورفيع.

- دشداشة: ثوب طويل للرجل.

- ماطور: ماكنة سحب الماء، تعمل بالكهربائية أو بالبانزين أو الديزل، وهي بأحجام متنوعة.

- زيق: فتحة الصدر في أي ثوب.

- جت: البرسيم.

- بكيف الله: بإرادة الله.

- الناعور: أو الساقية كما تسمى في مصر، هي أداة لنقل ماء النهر إلى اليابسة على ضفاف النهر يدوّرها حمار توضع عصابة على عينيه.

- البواري: المفردة: بارية. وهي الحصيرة المحاكة من القصب بعد تكسيره.

- بزر الگعدة: آخر العنقود. "بزر = بذر. الكعدة = القعدة من قعود"، أي المولود التي تقعد الأم من بعده ولا تنجب.

- الدود الفارسي: وهو النمل الأسود الكبير.

*** الفصل/٢:**

- كمب CAMP: المخيّم، أو المكان الذي يسكن فيه مجموعة من الناس.

- البسطية: هي مكان يعرض فيه البائع في الشارع بضاعته.

- يأكلون من قدر واحد: هو تعبير شعبي عن عيشهم كعائلة واحدة.

- R.O: وهو الماء الصالح للشرب والمعقم بالأوزون.

- يا ليتنا كنا معكم: (تكملة العبارة هي :فنفوز فوزا عظيما) تعبير يستخدمه قراء المجالس الحسينية في بداية المأتم، ومعناه أنهم يتمنون لو كانوا مع الحسين في معركة الطف "كربلاء" ليفوزوا بدخولهم الجنة.

- قيمر العرب: معنى "العرب" في اللهجة الدارجة في العراق هم ابناء القرى من الفلاحين والمزارعين ومربي البقر. والقيمر الذي ينتج من ذلك يختلف عن القيمر الذي تنتجه المعامل في الذوق والقيمة الغذائية.

*** الفصل/٣:**

- أواعدك بالوعد وأسقيك يا كمون: قيل أن رجلا حكيما و أحد طلابه ويدعى كمون، تحدى أحدهم الآخر بصنع سُم زعاف لمعرفة من منهما الأبرع، و اقترحا أن يجرباه على بعضهما. صنع كمون السم أولاً وسقاه للرجل الحكيم و انتظر.

أستطاع الحكيم أن يعالج نفسه بالحجامة أي بتجريح جسده ليخرج الدم مع الُسم، كما وقام بطلاء جسمه بالعسل لتتجمع عليه الحشرات، لتمتص الدم و تنقيه من الُسم.

تفاجأ كمون بأن الحكيم لم يمت، وعليه هو الآن بتنفيذ ما عليه من الاتفاق أي بشرب الُسم الذي سيصنعه الرجل الحكيم .

ذهب كمون إلى الحكيم و سأله متى تسقني الُسم؟

فيجيبه الحكيم ببرود (سأسقيك.. أسقيك الُسم يا كمون).

تمر الأيام والأسابيع والحكيم معتكف في البيت، ويزداد قلق كمون و يتساءل: ماذا يصنع الحكيم؟! أي سُم هذا؟

ويسرع إلى الحكيم ويسأله: متى الوعد يا حكيم؟

فيجيبه الحكيم بكل هدوء: لا تعجل (سأسقيك.. أسقيك الُسم يا كمون.)

يجُن جنون كمون إنه يريد أن يعرف ماذا يُعد له الحكيم !!

وتمر الأيام ويتضاعف هلع كمون فيموت من القلق والخوف وحتى قبل أن يشرب أي سُمٍ.

فصار هذا مثلاً على الوعد الكاذب الذي قد يودي بصاحبه إلى الجزع.

- لفات: مفردها لفة، وهي عبارة عن صمونة تشطر الى نصفين متصلين ويوضع فيها فلافل أو لحم مشوي أو مقلي أو مسلوق، أو أي شيء آخر يؤكل، وقد قال عنها الدكتور مصطفى جواد إنها تعني"الشاطر والمشطور وما بينها كامخ"، إنها السندويش.

*** الفصل/٤:**

- ياشماغ مطرز بخيوط سوداء: ألوان الخيوط التي يطرز بها الياشماغ عديدة، كالأسود، والأحمر، والأخضر، وفي الآونة الأخيرة ظهرت ياشماغات بألوان عديدة غير مشهورة التداول.

- خاولي: المنشفة. الفوطة.

- سادة: غير مخططة، لم يختلط معه لون أخر.

- التشابيه: رواية للكاتب صدرت عام ٢٠١٩.

- ستّوته: مركبة صغيرة بثلاث عجلات لنقل الأحمال، تعمل في العراق.

* الفصل/٥:

- زرة سمك: الزرة هي مجموعة من السمك تتشارك في التحرك، تشبه سرب الطيور.

- الأرواب السود: المفرد = روب، وهو الذي يلبسه المحامي عن المرافعة.

*** الفصل/٦:**

- "يذكرها البَعْدَه بكاروكه": وهي هوسة (اهزوجة) شعبية بمعنى إن الذي كان طفلا في مهده"كاروكه" يتذكرها لهول وقع الحادثة.

- القصيبة: الظفيرة.

- الفوطة: الشيلة وهي قطعة قماش خاص محاكة حياكة خاصة تلف بها المرأة رأسها لفة خاصة.

- هلهلت: زغردت.

- الزي العربي: أي الملابس العربية، وهي: الدشداشة واللباس الطويل والعباءة الرجالية والعقال والياشماغ، تلبس كلها في وقت واحد.

- براميل: المفردة برميل، وهو الخزان الاسطواني. هناك حكاية سمعتها وأنا صبي إن الرعد هو صوت تدافع وتصادم البراميل، والبرق هو احتكاكها القادح في السماء، والمطر هو ما يفيض منها من ماء يخرج عن طريق ثقوب في غطاء هذه البراميل.

- كباب الأعمى: وهو كباب ذي قار المشهور وصاحبه رجل أعمى.

- الدخل: المحصول اليومي من النقود.

* الفصل/٧:

- الروبة: الخاثر من اللبن.

- علاگة: كيس مصنوع من النايلون توضع فيه بعض المشتريات.

*** الفصل/٨:**

- اسطورة الثور الذي يحمل كرة الارض على قرنه:

- السكّينة في خاصرتنا: مثل شعبي للذي يغدر وهو قريب النسب.

- السدیناوية: منطقة زراعية تقع شرقي الناصرية. ويحتمل التسمية قد جاءت من (السدة ناوية = أي السدة مائلة).

- دبّات: المفردة دبّة. أواني اسطوانية أو على شكل متوازي الأضلاع لها غطاء مصنوع من القصدير أو الألمنيوم أو اللدائن توضع فيها السوائل.

- ماء اللبلبي: اللبلبي وهو الحمص المسلوق، ماؤه الساخن يشرب كدواء للحنجرته الملتهبة.

- "مخبول: مخبّل، أو موسوس.

*** الفصل/١٠:**

- البهو: وهو قاعة كبيرة على شكل مضيف موجود في الناصرية بناه كولبنكيان "نسبة ٥ بالمئة"في نهاية الخمسينيات في مدينة الناصرية.

- الهوسة: عدة أبيات شعرية ينظّم في وزن خاص تنتهي بالهوسة التي هي أبيات يدبك بعدها الرجال. يرددها "المهوال" أو "المهوسْچي" على مجموعة من الناس مع اشتراكهم بدبكة خاصة.

- "ضم عدساتك* لهل ايران... احنه الصينية أمفطح": فيها تورية معروفة عن العدس.

- أمفطح: مفطّح: وهو أن يشوى ويقدم الخروف المذبوح ويقدم كله مع الرز المطبوخ في صينية واحدة.

- البيك آب: سيارة صغيرة لنقل الحمولة.

- الخير كثير: قول لوصف الحالة المادية الجيدة. وفيه تورية استخدمها الروائي لقول مهوال أمام أحد الزعماء السياسيين (الخير العدنه مكوّم بس الأحزاب تفرهد بيه).

- الصعاديات: وهي الألعاب النارية.

القسم الثاني:

*** الفصل/١:**

- تنداف: تمتزج.

- السبيناغ: نبات حولي من الخضراوات الحقلية المألوفة، ويبلغ طوله ٣٠ سم، وينتج مجموعة سميكة من الأوراق العريضة الطرية.

- الدولمة: الدولمة أكلة تركية أساسا كما انها أكلة عراقية شهيرة .ويقع تحتها محشي ورق العنب من بلاد الشام وعموما فالدولمة هي كل محشيات الخضار بالرز واللحم المفروم والمطيبات والبهارات والتي تعتبر سر الطبخة الأساسي. كما عادة تكون الدولمة العراقية عبارة عن أوراق ملفوف المحشي بالرز واللحم المفروم و تسمى في بلاد البلقان سارما و تسمى في بلاد الشام يبرق.

*** الفصل/٢:**

- فلس أحمر: الفلس هو أصغر عملة عراقية مصنوعة من النحاس انتهى التعامل بها في ثمانينات القرن الماضي.

- لفة كص: الكُص هو الشاورمة.

- هورن: الزمور.

*** الفصل/٣:**

- شوربة عدس وصمونتين: وهو فطور أغلب العراقيين يعمل في البيت، ويباع كذلك بعربات في الكراجات خاصة. وفي العدس تورية يستعملها الروائي.

*** الفصل/٤:**

- مسطر العمال الأجراء: وهو موقف ينتظر فيه عمال البناء والاشغال المرافقة للبناء، من يؤجرهم للعمل. وهو مكان معروف في منطقة ساحة الطيران في بغداد، ولكل محافظة مكان مخصص لهم.

- الرصعة: الأثر الموجود في جبهة المصلي من أثر السجود، وتصنع هذه الرصعة بإحماء نواة بطاطا لتكوى بها الجبهة.

***الفصل/٥:**

- حفل طهور: الطهور هو الختان.

*** الفصل/٦:**

- التنكة: وهي صفيحة مصنوعة من القصدير "TEN".

- اللون الحنطي: وهو لون يشبة لون حبوب الحنطة.

- بوند: هو مشد لشعر الرأس مدور الشكل مصنوع من قماش ونايلون.

- چَفِتْ: وهو بدلة خاصة بالعمال.

- الباليت: وهي لوحة الألوان للفنان التشكيلي.

- الچكليت: وهي حلوى مشهورة مصنوعة من الكاكاو خاصة.

*** الفصل/٨ :**

- من طكّة البريج: (طكة = طقة = صوت الضربة)(البريج = الابريق. ويستعمل للاغتسال من التبول)، أي عندما يسمع صوت إبريق الماء. قول يرمز لنهوض الشخص من الفجر لكي يذهب الى التبول في الفجر قبل صلاة الفجر.

*** الفصل/٩ :**

- تخور: تدور.

- قمصلة: نوع من الملابس تشبه السترة أو الجاكيت.

- على طاري: على ذِكر.

*** الفصل / ١٠:**

- بغداد الجديدة: هي واحدة من أحياء بغداد الرئيسية، ويقع الحي في القسم الجنوبي الشرقي من مدينة بغداد في جانب الرصافة أو إلى الشرق من مركز العاصمة.

- شيتات: المفرد: شيت. وهو "ورقة من الألمنيوم" تغلف بها الحبوب الطبية.

- فززه: فاجأه.

- طريق محمد القاسم: وهو طريق سريع عام بني في ثمانينيات القرن الماضي، يمتد من جنوب بغداد الى شماله.

- يفور: تستعمل في الكلام المتداول بمعنى "يغلي" وليست بالمعنى القرآني بمعنى انبجس الماء من وجه الأرض.

صدر للمؤلف :

١ – القصص الشعبي العراقي من خلال المنهج المورفولوجي – دراسة – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة -١٩٨٦.
٢ - أبابيل – رواية – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة- ١٩٨٨.
٣ - طائر العنقاء – قصص قصيرة – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة- ١٩٨٨.
٤ - طريق الشمس – رواية – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة -٢٠٠١.
٥ - الف ليلة وليلة وسحر السردية العربية – دراسات – ط١ - اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ٢٠٠٠.
٦ - الف ليلة وليلة وسحر السردية العربية – طبعة ثانية مزيدة ومنقحة – ٢٠١٩ – معهد الشارقة للتراث - الشارقة.
٧- الف ليلة وليلة وسحر السردية العربية – طبعة ثالثة مزيدة ومنقحة – ٢٠٢٠ – دار الورشة – بغداد.
٨- الذئب والخراف المهضومة – دراسات في التناص الابداعي – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة- ٢٠٠١.
٩ – الجنس في الرواية العراقية – دار المتن للطباعة والنشر – ٢٠١٨.
١٠ - اوراق المجهول - رواية – دار المتن للطباعة و النشر - ٢٠١٩.
١١ – التشابيه – رواية – مطبعة الحسام – ٢٠١٩.
١٢ - النهر يجري دائما– نصوص ابداعية فائزة في المسابقة الابداعية لوزارة الثقافة لعام ٢٠٠٠– مع مجموعة من الادباء - بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة –٢٠٠٠.
١٣ – ترانيم الحرف – قصص قصيرة جداً – مشترك - دار المتن للطباعة والنشر – ٢٠١٨.
١٤ – نخلة خوص سعفها كثيف – رواية – ط١ - دار فنون – القاهرة – ٢٠٢٠.
١٥ - القصص الشعبي العربي – دراسات وتحليل – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد-٢٠٢٠.

كتب جاهزة للطبع :

- تجليات الاسطورة – قصة يوسف بين النص الاسطوري والنص الديني.
- الطبيعة في شعر أبي تمام . بحث لنيل شهادة الدبلوم العالي .
- ميتا القصيدة – قراءات في القصيدة العربية القديمة – دراسات.
- رشيد مجيد... انساناً وشاعراً - دراسات منشورة في الصحف والمجلات العراقية.
- اشكاليات الخطاب النقدي الأدبي العربي المعاصر- دراسات أدبية.
- الهاوية – رواية.
- الخزاف الماهر – رواية مذكرات.
- حكايات مدينتي – ثلاث روايات.
- بستان الحاج عبود.
- الكتاب المفتوح – رحلتي الى الاتحاد السوفيتي – أدب الرحلات.
- احلام المغني الصغير- مجموعة قصص قصيرة.
- صياغات شعرية في"كسر رتابة الشعر""دراسة في شعر عباس ريسان".